النظم القرآنى
فى
سورة الجمعة

د. عبد الحافظ ابراهيم البقرى

سورة الجمعة فى القرآن الكريم :

سورة الجمعة هى السورة الثانية والستون فى سور القرآن الكريم ، وتقع فى الجزء الثامن والعشرين بين أجزائه ، وهى سورة مدنية ، أى أنها نزلت بعد الهجرة — على أشهر ما جاء فى تفسير المكى والمدنى من القرآن الكريم (١) ، وعدد آياتها احدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة الصف .

ماذا يقصد بهذه الدراسة : ؟

تتغيى هذه الدراسة الوقوف على وجوه التطابق ، وجهات التناسب التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، سواء فى ذلك ما كان عاما أو خاصا من هذه الوجوه ، ونعنى بالعام ما انتظم السورة كلها ، وبالخاص ما كان فى بعض آيها من خصوصيات فى التراكيب وأسرار فى التعبير ، ومدى صلة ذلك بغاية السورة وموضوعها العام الذى تعالجه ، ونحن نتجشم مشاق هذه الدراسة ثقة فى الثمار اليانعة التى تكون بمدارسة ذلك الكتاب العزيز الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

---

(١) الاتقان للسيوطى ص ٩ ج ١ .
(٢) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

ونحن مدعوون الى تعرف أسباب الجمال ، ودراسته دراسة تفصيلية فى كل كلام تروقنا بلاغته ، وتأخذنا روعته ، اذ أنه « لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما ، وأن تصفها وصفا مجملا ، وتقول فيها قولا مرسلا ، بل لا تكون من معرفتها فى شىء حتى تفصل القول وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم ، وتعدها واحدة واحدة ، وتسميها شيئا شيئا ، وتكون معرفتك معرفة الصنع (٣) الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الابريسم الذى فى الديباج ، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع ، وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع » (٤) .

كما أن هذا النهج من الدراسة سبيل الى الوقوف على حجة الله تعالى فى اعجاز القرمن الكريم « ومتى جشمت ذلك ، وأبيت الا أن تكون هنالك فقد أممت الى غرض كريم ، وتعرضت لأمر جسيم ، وآثرت التى هى أتم لدينك ، وفضلك ، وأنبل عند ذوى العقول الراجحة لك ، وذلك أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذى هو أضوا لها ، وأنوه لها ، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعا ، وكوكبها طلوعا ، وأن تسلك اليها الطريق الذى هو آمن لك من الشك ، وأبعد من الريب ، وأصح لليقين ، وأحرى بأن يبلغك قاصية التبيين » .

ولست أزعم أننى أسلك سبيلا من سبل التفسير للقرآن الكريم متخفيا تحت قناع من لون جديد ، اذ لعلماء التفسير القدح المعلى فى ابانة معانيه ، والكشف عن أغراضه ومراميه ، وجزاهم الله تعالى خير الجزاء .

وانما الذى أردت : أن نتحسس الجمال فى القرآن ، وأن نراه من

---

(٣) (بكسر فسكون ، وبفتحتين) .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٦ .

منظور بلاغى ، مؤمنا أن نهتدى اليه هو غيض من فيض ، اذ أن كتاب الله تعالى لن يزال زاخرا بأسرار الجمال ، وأسباب الجلال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها •

هى — اذن — دراسة بلاغية تحليلية لسورة من سور القرآن الكريم واذا شوهد فى رحابها تفسيرا أو فقه ، أو حديث ، أو دراسة ما لعلوم الشريعة ، فان ذلك يكون مما دعت الحاجة اليه ، فان موضوع الدراسة من القرآن الكريم ، والقرآن كتاب منهج كما هو كتاب معجزة، والمنهج له جهات متعددة ، وفهمنا لأسباب الجمال وأسراره يقتضينا العودة الى المعانى والأحكام الشرعية التى تتصل بموضوع هذه الدراسة ، فلا غرابة أن نعرض لفقه أو لأحاديث شريفة ، أو لعقائد ، فذلك كله وسيلة لوقوفنا على ما فى بلاغة النظم القرآنى فى سورة الجمعة التى آثرناها بالدراسة •

هذا مع ايمان لا يخالجه شك فى أن وجوه اعجاز القرآن الكريم مهما اجتمع حولها الدارسون فلن يستطيعوا الاحاطة بها ، ويبقى بعد ذلك للقرآن الكريم ذلك الوجه الذى يشعر به العوام والخواص ، والمسلم وغير المسلم ، انه « صنيعة بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا اذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو لرسول الله صلى الله عليه وسلم — من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت

مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم وأن يركنوا الى مسالمته ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا » (٥) .

والى هذا الوجه أشار الزركشى فى البرهان حيث قال « فمنها الروعة التى له فى قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء المقر والجاحد » (٦) .

وكذا القاضى عياض فى الشفا قائلا : « .. ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه ، كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبى — صلى الله عليه وسلم — يقرأ فى المغرب بالطور قال فلما بلغ هذه الآية « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » الى قوله : « المسيطرون » كاد قلبى أن يطير ، قال وذلك أول ما وقر الاسلام فى قلبى ، وقد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف »(٧) ذلك هو تأثير القرآن الكريم ، انه بعيد المدى ، وقد أردت بذكر هذا الأثر أن نكون على علم دائم به ونحن نتناول القرآن بالدراسة والتحليل ، ولا اخال أننى أعرض لجوانب اعجازه فى هذا البحث ،ولكن أحاول الوصول الى بعض وجوهه التى تبدت من خلال تطبيق المقاييس البلاغية على سورة الجمعة ، مضافا الى هذه المقاييس التذوق لما فى التعبير القرآنى من جمال فى هذه السورة ، مع الاستعانة بعلوم الدين — من فقه وحديث وغيرهما — مما له صلة بصلاة الجمعة حيث انها فريضة وهى « صلاة جامعة لا تصح الا فى جماعة وهى صلاة أسبوعية

---

(٥) رسالة الخطابى : البيان (وهى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن) ص ٧٠ .

(٦) الاتقان ص ١٢٢ ج ٢ .

(٧) الاتقان ص ١٢٣ ج ٢ .

يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ، ويلتقوا ويستمعوا الى خطبة تذكرهم بالله ، وهى عبادة تنظيمية على طريقة الاسلام فى الاعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم واحد وفى العبادة الواحدة ، وكلاهما عبادة » (٨) ومعرفه وجوه التطابق وما اشتملت عليه تلك السورة من تناسب وترابط يتوقف فهم كثير منه على علوم الشريعة ، فضلا عن علوم اللغة ، ولعل فى هذا ما يؤكد لنا وثوق الصلة بين الدين واللغة ، وانهما لا غنى لأحدهما — فى فهمه — عن الآخر •

وقبل أن نبدأ دراستنا التى قصدنا اليها نلقى ضوءا على المعنى اللغوى للكلمة التى حملت اسم السورة ، ونتبين : أهو اسم اسلامى أم اسم وضع قبل الاسلام ؟ واذا كان قد وضع قبل الاسلام فماذا أضاف الاسلام اليه ؟

أما المعنى اللغوى للكلمة « الجمعة » فان المادة التى تتكون من « الجيم والميم والعين أصل واحد يدل على تضام الشىء ، ويقال : جمعت الشىء جمعا والجماع : الاشابة (٩) من قبائل شتى •

وجمع : مكة (١٠) ، سمى لاجتماع الناس به ، وكذلك يوم الجمعة (١١) •

فمادة الكلمة مدلولها اللغوى التضام والاجتماع ، وسنرى ان شاء الله — من خلال الدراسة كيف تمت المطابقة بين الاسم والمسمى حيث تضامت أمور كثيرة وائتلفت فى ترابط داخل سورة الجمعة •

---

(٨) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٣٥٦٩ جـ ٣٨ المجلد السادس •

(٩) الأشابة (بالضم) الاخلاط (القاموس المحيط) •

(١٠) تصح على قراءتها بالاضافة ، والا فان جمعا اسم المزدلفة ، ولم يذكر أحد أن جمعا هو مكه (هارون فى تحقيقه للمقاييس ص٤٨٠ جـ١) •

(١١) مقاييس اللغة لابن فارس جـ ١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ •

وأما كون هذا الاسم اسلاميا أو جاهليا : فالذى يترجح أنه اسم كان قبل الاسلام وأنه كان يسمى أولا : « عـــروبة » ثم غـير الى الجمعة كما غـيرت أيام الاسـبوع الأخـرى ، فقـد كانت : شبار ، أول ، أهون ، جبار ، دبار ، مؤنس ، عروبة • ثم صـارت : السبت ، الأحد ، الاثنين ، الثلاثاء ، الأربعاء الخميس ، الجمعة •

وعدت هذه الاسماء التى استبدل بها غيرها مما أميت استعماله (١٢) ومما يعتمد عليه فى ترجيح أن هذا الاسم وضـع ليوم الجمعة قبل الاسلام ما قيل من : « ان أول من سمى الجمعة العروبة كعب بن لؤى وبه جزم الفراء وغيره (١٣) ، وما ذكر فى سبب التسمية من أن كعب ابن لؤى كان يجمع قومه فيه فيـذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ، ويخبرهم بأنه سيبعث منه نبى » (١٤) •

فالتسمية كانت قبل الاسلام ، أما ما أضافه الاسلام الى هـذا اليوم فهو تعظيمه وتفضيله على سائر أيام الأسبوع حيث خص بهذه الفريضة الأسبوعية ، وكان اختصاصه بها تأكيدا لفضائل أخرى هى له منذ بدأت الخليقة ، وكل منها يتصل اتصالا وثيقا بما فيـه من معنى الجمع ، ذلك أن خلق آدم جمع فيه ، كما أن كمال الخلائق جمع فيـه أيضا (١٥) • وقد كان تعظيمه مفروضا على الأمم التى سبقت ، غير أنهم اختلفوا فيه ، على ما ذكره الحديث الشريف : « نحن الآخـرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هـذا

---

(١٢) راجع تاريخ آداب العرب للرافعى ص ١٦٢ ج ١ •
(١٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٥٣ •
(١٤) السابق نفسه •
(١٥) السابق نفسه •

يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غدا ، والنصارى بعد غد (١٦) .

موضوع السورة ومدى ارتباطها بما قبلها :

موضوع سورة الجمعة هو استمرار أمانة الدعوة الاسلامية محموله على كاهل هذه الأمة ، تدعو الناس اليها ، وتبلغهم اياها مستمدة من الكتاب والسنة ، وذلك امتداد لا ينقطع لرسالة التى بعث بها محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو أيضا واجب الشكر نحو امتنان الله تعالى على هذه الأمة ببعثة النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — فيها والوسائل التى تعين على هذا الدور هى الصلة بالله تعالى ، وتسبيحه وتنزيهه ، وأطمئنان النفوس الى تزكيته تعالى لها ، ومنه عليها بالمغفرة والرحمة ، مادامت تحيا فى ظلال عملها بما تعلم من كتاب وحكمة ، تصلح الدنيا بالدين ، وتعمر الأرض بعد فراغها من عبادتها ، مستصحبة معنى الموت الذى لا مفر منه ، واثقة أن مقاليد الأمور بيد الله تعالى ، وأن الدعوة اليه ، والعمل لدينه لا يضيعان رزقا ، ولا يعقبان حرمانا ، فالله هو خير الرازقين وان الأمر بالسعى الى ذكر الله اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، لسماع موعظة ، وأداء فريضة الصلاة ، ثم الأمر بالانتشار فى الأرض وابتغاء فضل الله ، لهو تلخيص للدور الريادى القيادى الذى تضطلع به أمة الاسلام ، وما جاء من ذكر مثل أحبار اليهود ، ثم حادث أولئك الذين انصرفوا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حال خطبته ، هو تعرية وكشف لصور الاستجابة للمغريات فى ظل الضعف النفسى ، لعل فى عرضه ما ينهض بالأمة فلا تتوانى فى كشفها الحق للناس ، ولا تدع قواها تضعف وتضمحل أمام بريق المغريات .

---

(١٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة (ينظر فتح البارى جـ ٢ ص ٣٥٤) .

والسورة الكريمة باشتمالها على هذه المعانى تبدو وثيقة الصلة بسابقتها « سورة الصف » ، اذ هى تعالج الموضوع الذى عالجته سورة الصف ، ولكن من جانب آخر ، وباسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة (١٧) بيان ذلك « انه تعالى لما ذكر فيما قبل حال موسى عليه السلام مع قومه وأذاهم له ناعيا عليهم ذلك ذكر فى هذه السورة حال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفضل أمته تشريفا لهم لننظر فضل ما بين الأمتين، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود ، وأيضا لما حكى هناك قول عيسى عليه السلام « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » قال سبحانه هنا « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » اشارة الى أنه الذى بشر به عيسى ، وأيضا لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة، ختم هذه بالأمر بالجمعة وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية ،وأيضا فى كلتا السورتين اشارة الى اصطفاف فى عبادة ، أما فى الأولى فظاهر ، وأما هذه فلأن فيها الأمر بالجمعة ، وهى يشترط فيها الجماعة التى تستلزم الاصطفاف (١٨) .

كما أن البشرى برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جاءت فى سورة الصف باسمه الشريف « أحمد » وهو صلى الله عليه وسلم ــ له أسماء عديدة حدث بها فقال : « ان لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » (١٩) .

وفى مواضع اخرى من القرآن الكريم ذكر ــ صلى الله عليه وسلم ــ باسمه محمد لكن « أحمد » لم يأت الا فى سورة الصف ،

---

(١٧) فى ظلال القرآن ٢٨/٣٥٦٢ .

(١٨) روح المعانى للالوسى : ٨١ ، ٨٢ ، ٢٨ .

(١٩) الحديث ذكره ابن كثير نقلا عن البخارى ، ثم قال : ورواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه (تفسير ابن كثير ٤/٣٦٠) .

ولفظ أحد اسم تفضيل من مادة الحمد الذى هو « الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها .. وهو احدى شعب الشكر » (٢٠) ، ففى تسميته ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا الاسم دلالة على أنه أكثر الناس ثناء على ربه ــ تعالى ..

واذا كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو الأسوة الحسنة لأمته « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٢١) .

ففى فريضة الجمعة ما يسهم فى تحقيق حسن الأسوة به ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذ لهذه الفريضة خطبتان واجبتان قبل صلاتها وفى كل من الخطبتين يجب أن يحمد الله تعالى (٢٢) .

وأيضا جاء فى سورة الصف وعد الله تعالى باتمام نوره ، واظهار دين الحق على الدين كله « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو وكره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٢٣) .

ويجىء التعبير فى الوعد باتمام نوره تعالى بجملة اسمية ، المسند فيها اسم أيضا ، ومن المعلوم أن كون المسند اسما يفيد الثبوت والدوام ، من حيث « ان موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشىء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء » (٢٤) .

---

(٢٠) تفسير الكشاف ١/٤٧/٤٦ .

(٢١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

(٢٢) ينظر : الأم للامام الشافعى رضى الله عنه جـ ١ ص ١٧٨ ط . الشعب .

(٢٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الصف .

(٢٤) دلائل الاعجاز ص ١٢٣ .

ومن الواضح البين أن فريضة الجمعة التى تتكرر كل أسبوع مظهر من مظاهر تحقيق وعد الله تعالى اتمام نوره ، فوقوع سورتها بعد سورة الصف هو اشد ما يكون تناسبا لكثرة ما بينهما من صلات، وختام سورة الصف « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » • وأى ظهور أجلى وأوضح من أن تقام تلك الشعيرة التى يتحقق بها دوام صلة الأمة برسولها واستمرار تلقيها عنه ؟ معماتحمله الدعوة الاسلامية من وضوح الأدلة ، وسطوع البراهين ، ولذا فانه لا يضر الاسلام أن ينصرف كثير من الناس عن اتباعه ولكن المهم أن تبقى الدعوة اليه يتردد صداها ، ويعلو نداؤها وهذا ما تعنى به سورة الجمعة •

واذا كان هذا النداء « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله » قد ارتبط به ذكر عقبى الايمان من نصر واعلاء « فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (٢٥) فان العبرة المستفادة من هذه الاشارة ومن هذا النداء ••• هى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، والأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الالهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى ، استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه (٢٦) •

وغنى عن البيان أن سورة الجمعة حملت الأمة الاسلامية أمانة الدعوة الى هذا الدين ، ورسمت الطريق الذى ينبغى للدعاة أن يكونوا

---

(٢٥) جواب الشرط الذى ذكر فى « واذا كان هذا النداء » •

(٢٦) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٣٥٦١ ـ المجلد السادس •

عليه ملخصا فى : دعوة يسبقها التزام الدعاة بما يقولون ، وذلك يفهم من اشتمال السورة على هذا المثل « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » وحين يتم هذا المنهج من الدعوة فقد تحقق وجود أنصار الله ، فيكون حينئذ التاييد الالهى ، ويحمد الله أن صدق وعده ، وكأن سورة الجمعة بعد سورة الصف اشادة بالأميين وتحقيق للبشرى التى جاءت على لسان عيسى عليه السلام بأحمد ، واظهار لدين الله تعالى ، وتطبيق عملى لاقتداء الأمة بنبيها فى كونه أحمد ، ثم هى فى النهاية ترسم معالم الطريق لأنصار الله ليهتدوا اليها فيحظوا بالنصر والتأييد •

انه القرآن الكريم بما له من احكام ثم تفصيل « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٢٧) وانه الكتاب الذى دعينا الى تدبره : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » (٢٨) • واذا كان موضوعنا «النظم» فان مجىء السورة هكذا على نحو هى شديدة الارتباط فيه بسابقتها ، بحيث ترى مؤتلفة معها فان ذلك الارتباط الوثيق صورة من صور النظم الذى هو المدار لقضية الاعجاز ، مع مراعاة التوسع فى مفهومه ليتناول ذلك الوجه من التطابق بين سورة وأخرى من القرآن الكريم •

ونصل من النظم الذى بين السورة وسابقتها الى النظم فى داخل السورة نفسها • « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتا بوالحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين • وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم • ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » •

---

(٢٧) الآية /١ من سورة هود •

(٢٨) الآية/٢٩ من سورة ص •

تبدأ السورة بالفعل «يسبح» ومادة «سبح» استعملت فى القرآن الكريم بصيغ متعددة ، كل منها خالفت الأخرى ، فهى فى أول الاسراء مصدر « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » وفى أول الحديد والحشر والصف بلفظ الفعل الماضى « سبح لله » وفى الجمعة والتغابن « يسبح» بلفظ المضارع ، وفى الأعلى جاءت صيغة التسبيح بلفظ الأمر « سبح اسم ربك الأعلى » ، وذلك كله « استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهى أربع : المصدر ، والماضى ، والمستقبل، والأمر للمخاطب » (٢٩) وهى أيضا « كلمة استأثر الله بها » (٣٠) .

فما التسبيح ؟ وما المراد بـ «ما» فى «ما فى السموات وما فى الأرض » ؟ « التسبيح : تنزيه الله تعالى ــ اعتقادا وقولا وعملا ــ عما لا يليق بجنابه سبحانه ، من قولهم : سبح فى الأرض والماء اذا ذهب وأبعد فيهما » (٣١) . « وما » فى الآية الكريمة أميل الى عمومها بحيث تتناول (٣٢) العالم وغيره ، وان كان بعضهم يرى أنها تستعمل للعالم فقط » قال أبو عبيده فى قوله تعالى : « وما خلق الذكر والأنثى » (٣٣) أى ومن خلق الذكر والأنثى . وكذلك قوله تعالى : « والسماء ومابناها . والأرض وماطحاها ــ ونفس وماسواها» (٣٤) هى عنده فى هذه المواضع بمعنى «من» (٣٥) .

---

(٢٩) أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى ص ٢٠٠ .
(٣٠) السابق نفسه .
(٣١) روح المانى للالوسى ٢٧/١٤٢ .
(٣٢) انظر روح المعانى جـ ٢٤ ص ١٤٣ .
(٣٣) الآية/٣ من سورة الليل .
(٣٤) الآيات : ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الشمس .
(٣٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥٢٣ .

وهذا الذى قاله أبو عبيدة جوزه الطبرسى فجعل ما للعالم فقط مثلها فى قول أهل الحجاز • كما حكى أبو زيد ــ عند سماع الرعد « سبحان ما سبحت له » (٣٦) •

واذا كان التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به سبحانه ففى افتتاح سورة الجمعة به تناسب بين ، اذ السورة تحمل الأمر بالسعى الى ذكر الله حين ينادى للصلاة فى يومها ، والصلاة والخطبة كلاهما تنزيه لله عما لا يليق به ، اذ الصلاة أخص مظاهر التوحيد ، وأقوى دلائله ، والخطبة ثناء على الله تعالى ، ثم ان موضوعها ــ أيا كان ــ هو فى جوهره تنزيه لله تعالى ، ودعوة الى مداومة هذا التنزيه •

وفضلا عن ذلك فان حملة الدعوة والأمناء عليها بحاجة الى التسبيح ــ بل والمداومة عليه ، ولا سيما اذا ووجهوا بما يعترض طريقهم ، فضاقت لذلك نفوسهم ، وقد أمر الله تعالى ــ رسوله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم أن يستعين على ما يجده من ضيق بسبب عناد قومه ، بتسبيحه سبحانه « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون • فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » (٣٧) •

واذا كان التناسب بينا فى افتتاح سورة الجمعة بالتسبيح ، فما الوجه فى التعبير بصيغة الفعل هنا ؟ ثم ما وجه كونه فعلا مضارعا ؟ أما التعبير بالفعل فذلك لافادة الحدوث كما هو شأن التعبير بالفعل دائما، ومعنى ذلك أن التسبيح يحدث بعد أن لم يكن ، أما كونه مضارعا فلما لهذا التسبيح من تجدد يتوالى تكراره كل أسبوع دون انقطاع على حد ذلك التجدد الذى نراه يتكرر ويستمر فى قول طريف بن تميم العنبرى •

---

(٣٦) روح المعانى ٢٧/١٤٣ •

(٣٧) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الحجر •

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم (٣٨)

اذا لمعنى : على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف هناك (٣٩)

وعلى ذلك فلدينا فى الفعل «يسبح» ثلاثة وجوه للتناسب أولها من حيث معناه ، وثانيها وثالثها من حيث صيغته • وهذان الوجهان اللذان هما من حيث الصيغة فيهما التعبير الذى يتطابق تمام المطابقة مع ما يحدث من دوران الأيام وتكرار فريضة الجمعة على مدى الزمن كله منذ فرضت هذه الشعيرة الى ان تقوم الساعة ، انه شىء يحدث ، ويتوالى حدوثه ويستمر على مدى السنين •

والفعل «يسبح» متعد بنفسه ، وعدى هنا باللام « اشعارا بأن ايقاع الفعل لأجل الله تعالى ، وخالصا لوجهه سبحانه » (٤٠) •

وقد ذكرنا — قبل — أننا نميل الى معنى العموم فى ما ، وذلك لما خص به يوم الجمعة من اشتغال الكون كله : سمائه وأرضه بالسجود له تعالى ، يقول الامام الشافعى رحمه الله تعالى : بلغنا عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فانى أبلغ وأسمع » قال : « ويضعف فيه الصدقة ، وليس مما خلق الله من شىء فيما بين السماء والأرض — يعنى غير ذى روح — الا وهو ساجد لله تعالى فى عشية الخميس ليلة الجمعة ، حتى يصبح يوم الجمعة ، فاذا أصبحوا فليس من ذى روح الا روحه فى حنجرته الى أن تغرب الشمس فاذا غربت الشمس أمنت الدواب وكل شىء كان فزعا منها غير الثقلين » (٤١)

---

(٣٨) عكاظ : سوق بصحراء بين نخلة والطائف ، والعريف : القيم الذى يقوم بأمر القوم ، يريد أنهم يبعثون اليه عريفهم من أجل شهرته وعظمته • (٣٩) الايضاح للخطيب القزوينى جـ ١ ص ١٧٣ •

(٤٠) روح المعانى ١/٢٠٤ •

(٤١) الأم للامام الشافعى ص ١٨٤ ط • الشعب •

وعلى ذلك يكون الجمع بين السموات والأرض مرجحا لمعنى العموم الذى آثرناه فى «ما» لما فيه من دلالة على اشتغال كل ما فيهما بالتسبيح ، ومن ثم تبدو قيمة الطباق فى الجمع بين السموات والأرض، انه ربط بين عالم السماء وعالم الأرض برباط قدسى يتمثل فى اشتغال العالمين معا بتسبيح الله تعالى •

ونتوالى بعد ذلك صفات أربع « الملك القدوس العزيز الحكيم » هى من الاسماء الحسنى • ولهذه الأسماء الأربعة فى هذا الموضع ايضا تناسب مع الجمعة : من حيث هى سورة قرآنية موضوعها بيان الدور الذى تضطلع به الأمة الاسلامية ، ومن حيث هى شعيرة دينية لها آثارها فى كل مسلم التزم بأدائها ، ذلك أن اداء الدور الريادى بدعوة الناس الى الخير الذى جاء به الاسلام يحتاج الى أن يكون للرواد تمكن فى هذه الأرض حتى يسمع لهم صوت ، ويلتفت اليهم ، فبين — سبحانه — أنهم لا بد لهم من استمدادهم ذلك التمكن منه : باخلاصهم لعقيدتهم ، وصدقهم فى أعمالهم واتساق سلوكهم مع دعوتهم — على النحو الذى يفهم من المثل الذى جاء فى السورة •• مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » •

وحينئذ يكون لهم المدد من ملكه تعالى ، ومن قدوسيته ، وعزته وحكمته واذا كانت الجمعة فريضة تقتضى ترك الأعمال الدنيوية بعض الوقت ، فلعل ضعاف النفوس يضيقون بذلك الجزء الذى يقطعونه ن أوقاتهم فكان نكر « الملك القدوس العزيز الحكيم » تطمينا لهؤلاء ومن كان على شاكلتهم حتى يرتبطوا بالله الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، والذى تطهر النفوس بورودها ساحته ، فيخلع عليها — سبحانه — عزته ، ويؤتيها حكمته ، ولنتناول ذلك التناسب بشىء من التفصيل :

ونبدأ باسمه تعالى «الملك» وهو سبحانه « يوصف بأنه الملك قال تعالى : « فتعالى الله الملك الحق » (٤٢) ويوصف بأنه المالك ، قال تعالى : « مالك يوم الدين » (٤٣) ويوصف بأنه مالك الملك،قال تعالى«قل اللهم مالك الملك » (٤٤) ويوصف بأنه المليك ، قال تعالى « عند مليك مقتدر » (٤٥) فالمالك مشتق من الملك ، والملك مشتق من الملك(بضم الميم) والمليك مبالغة من المالك كالعليم مبالغة من العالم • وأصل الملك فى اللغة الشد والربط ، ومنه قولهم : ملكت العجين اذا بالغت فى عجنه ، ووجه ثان أنه مشتق من القدرة ••• ويقال لعقد المصاهرة «الاملاك» لأنه يرتبط بعقد التزويج وصلة ما بين الزوجين (٤٦) •

فاذا كان معنى الكلمة التى تتألف من مادة « م ل ك » الشد والربط ، أو أنها اشتقت من القدرة فان كلا من هذين المعنيين يوجد هنا مع تحقق كماله الذى يستفاد من صيغة المبالغة ، وذلك تناسبا مع استحقاقه سبحانه التسبيح خالصا لوجهه مع بث الثقة فيما عنده، والحض على التعلق به لكونه الملك الذى بسط ملكه على جميع الأشياء، فهو يتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة •

وأما القدوس : فانه « على وزن فعول ، وهو من القدس ، والقدس : الطهارة والتقديس : التطهير ، والأرض المقدسة : المطهرة (٤٧) ومعناه فى وصفه تعالى أنه المنزه عن كل وصف يدركه

---

(٤٢) الآية ١١٥ من سورة المؤمنون •
(٤٣) الآية ٤ من سورة الفاتحة •
(٤٤) الآية ٢٦ من سورة آل عمران •
(٤٥) الآية ٥٥ من سورة القمر •
(٤٦) شرح أسماء الله الحسنى للقشيرى ص ١٢٥ •
(٤٧) السابق نفسه ص ١٣١ ، وكذا : لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى ١٩٨٠ والصفات للرازى ص ١٨٥ (مكتبة الكليات الأزهرية طبعة ١٩٨٠) •

الحس ، أو يتصوره خيال ، أو يسبق اليه وهم ، أو يختلج به ضمير ، او يقضى به تفكير • ولست أقول منزه عن العيوب والنقائص ، فان ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب ، فمن نفى الوجــــود يكاد يوهم امكان الوجود ، وفى ذلك الايهام نقص • بل أقول القدوس هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذى يظنه أكثر الخلق ، لانهم أولا نظروا الى أنفسهم وعرفوا صفاتهم وادركوا انقسامها الى ما هو كمال ، ولكنه فى حقهم ، مثل : علمهم وقدرتهم ، وسمعهم وبصرهم ••ووضعوا هذه الألفاظ بازاء هذه المعانى ، وقالوا : ان هذه أسماء الكمال • والى ما هو نقص فى حقهم ، مثل : جهلهم وعجزهم •• فوضعوا بازاء هذه المعانى هذه الألفاظ ••• وهو ـ تعالى ـ منزه عن أوصاف كمالهم ، كمـــا أنه منزه عن أوصاف نقصهم بل كل صفة تتصور للخلق فهـــو منزه عنها وعما يشبهها ويماثلها (٤٨) ولمـــا كان للعبد من هذا الاســـم حظ يتمثل فى : « أن ينزه ارادته وعلمه » فان ذكره فى سورة الجمعـــة يكون وثيق الصلة بمعناه لتلاقى هذا المعنى مع الغاية من فريضـــة الجمعة التى هى انقطاع عن الدنيا واقبال على تزكية النفوس • وأما « العزيز الحكيم » فيعنى بهما « الجامع الكمالات كافة ، فانها مــــع تكثرها وتشعبها راجعة الى كمال القدرة المؤذن به العزيز بناء عــــلى تفسيره بالغالب والى كمال العلم المؤذن به الحكيم بناء على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة » (٤٩) وهذان الاسمان من أسماء الله تعالى يقتضيهما نظم السورة من عدة وجوه :

أولها : السورة تعنى بانتقال محل القيادة البشرية من بنى اسرائيل الى الأميين بعد أن أثبت بنو اسرائيل عدم أهليتهم لهذه القيادة ، مع

---

(٤٨) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لحجة الاســـلام الغزالى ص ٦٥ •

(٤٩) روح المعانى جـ ٢٨ ص ٥٦ •

ما للقيادة التى خول أمرها الى الأميين من طابع العموم زمانا ومكانا وذلك التحويل حين تم كان على أساس من كمال القدرة وكمال العلم.

ثانيا : فى السورة فرض صلاة الجمعة وأمر بترك الاشتغال بأمر الرزق ساعة يسمع النداء ، فنبه من اول الأمر على أن من حالف أمره فقد عرض نفسه لعقاب العزيز الذى لا يغالب ، وفاتته حكمة أحكم الحاكمين ، ولعل فى ذلك ما يرمز من بعيد الى التحذير من الخروج على منهجه — سبحانه — .

ثالثا : الجمعة فريضة أسبوعية وهى تكفير للذنوب ومغفرة لها اذا تم أداؤها على النحو الأمثل ، وقد ثبت ذلك فى صحيح الحديث، عن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — « من اغتسل يوم الجمعة ، وتطهر بما استطاع من طهر ، ثم أدهن أو مس من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له ، ثم اذا خرج الامام أنصت ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » (٥٠) والمغفرة مقام يناسبه «العزيز الحكيم» وقد صرح القرآن الكريم بذلك على لسان المسيح عليه الصلاة والسلام فيما حكاه عنه « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (٥١) وكذا فى قوله تعالى : « فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (٥٢) .

ومما يؤكد لنا ذلك أيضا ما حكى أن اعرابيا سمع قارئا يقرأ

---

(٥٠) الحديث أخرجه البخارى فى « باب لا يفرق بين اثنين يوم الجمعة » وانظر : فتح البارى جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٥١) الآية ١١٨ من سورة المائدة .

(٥٢) الآية ٢٠٩ من سورة البقرة .

«فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم» ولم « يكن يقرأ القرآن فقال : ان كان هـــذا كلام الله فلا يقول كذا ، الحكيم » لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه اغراء عليه (٥٣) ٠

وبعد الاستفتاح بالتسبيح والثناء على الله تعالى بما استدعاه موضوع السورة من صفاته ــ تعالى وكما وكمالاته ــ ينقلنـــا نظم السورة الى منة الله العظمى فى بعث نبيه الأمى فى تلك الأمة الأمية ، ونرى الترابط المحكم بين تسبيح كل ما فى السموات وما فى الأرض له وبين هذه المنة العظمى ، وكانها هى السبب الذى دعا الكون كله أن يردد فى نغمة متجاوبة متناسقة كلمات التسبيح التى تتكرر وتتجــدد فى سمع الزمان ، ولا عجب فى ذلك فهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى أعاد الى الكون كله انسجامه حين اهتدى به الانسان ٠

وهذا أسلوب يسميه البلاغيون « شبه كمال الاتصال » ويسمونه أيضا « الاستئناف » وتلك التسمية منهم يعنى بها وجود صلة قــوية بين الجملتين وأى صلة أقوى من أن تكون الجملة جوابا عن ســؤال اقتضته الجملة الأولى ؟ ان هذا فى الواقع توضيح للعلاقة التى تصل الجملة الثانية بالأولى اتصال السبب بالمسبب والبــلاغيون يمتدحون هذا الأسلوب ويرون فيه جهات متعددة للطفه ، ونذكر منها فيما بين الآيتين الكريمتين : « تنبيه السامع على موقع السؤال ، واغناءه ــ فى نفس الوقت ــ عن أن يسأل » (٥٤) ٠

وتجىء المنة ببيان موطن الاعجاز فى هذه الرسالة ، ودور الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أما موطن الاعجاز فيتمثل فى كون هذا الرسول

---

(٥٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٣ ، وكذا الاتقان ج ٢ ص ١٠١ ٠

(٥٤) انظر الايضاح ج ٢ ص ٧٩ ٠

أميا ، مبعوثا فى أميين ، وقد عرف عن العــــرب حين أشرقت شمس الاسلام • انهم غلبت فيهم الأمية حتى ان الكتاب منهم كانوا يعدون، ويؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـــ « أنا أمة أميه لا نكتب ولا نحسب » (٥٥) وتبدو المعجـــزة حين يتلو عليهم النبى الأمى آيات القرآن الكريم • وهو الذى لم تعهد منه قراءة ، ولم يعرف بتعلم ، ونسمع كلمه «الأميين» لمعنى آخر هو ما عرف لدى اليهود«بالأميين» • أى غير اليهود (٥٦) أما دوره فيهم فليس مجرد التلاوة ، انه « يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمم الكتاب والحكمة»وتتوسط التزكيةبين التلاوة والتعليم ، اذ هى مترتبة عليهما معا ، فاتصلت بكل منهما حين توسطت لتكونها من التلاوة ومن التعليم ويجدر بالذكر أن نتأمل الأفعال التى تناولت دور الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وكلها أفعال مضارعة، على نحو ما عبر بالفعل «يسبح» فى افتتاح السورة ، وذلك لما نعرفه من دلالة صيغة المضارع على التجدد الاستمرارى ، ولهـــذا الدور واصيغته التى عبرت عنه اتصال قوى بسورة الجمعة ، انه تلاوةوتزكية وتعليم وهذه الثلاثة تلخيص لدوره ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ودور ورثته من بعده الذين يحملون واجب الدعوة الاسلامية وصيغة المضارع تتطابق مع تكرر التلاوة والتزكية والتعليم فى كل يوم جمعة ، واذا كان

---

(٥٥) الحديث أخرجه : البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عمر (أنظر روح المعانى ج ٢٨ ص ٨٢) •

(٥٦) انظر فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ج ٢ ص ٣٥٦٤ ، وقد ذكر أن اليهود كانوا يطلقون على غيرهم من الأمم «جوييم» باللغة العبرية أى أمميون ، بناء على أنهم شعب الله المختار والنسبة فى العربية ــ على ماتقضى به قواعدها تكون الى المفرد : أمة • ثم قال : وربما كان هذا أقرب بالنسبة الى موضوع السورة •

هذا دور الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، ودور ورثته من بعده وهو — بلا شك احياء لموات النفوس ، من مصدر الفعل «بعث» لتلك المنة يكون أليق تناسبا حين جاء فى جو يفيض بالحياة ، واى حياة لا « او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٥٧) ويجىء لفظ «رسولا» منكرا ليخلع هذا التنكير معانى التعظيم عليه — صلى الله عليه وسلم — التعظيم لشخصه ، التعليم لخلقه ، التعظيم لدوره ، التعظيم لدينه وشرعه التعظيم لخصائص الرسالة التى اختير هو لها ، من حيث عمومها فى الزمن والمكان وليس هذا التعظيم مغالاة فى القول ، أو اسرافا فى التقدير ، انما هو مكانه — صلى الله عليه وسلم — الذى نجده له فى القرآن الكريم فى غير هذا الموضع ، فقد خوطب وهو المفرد خطاب الجمع « يأيها الرسل كوا من الطيبات » « فهذا خطاب له — صلى الله عليه وسلم — وحده اذ لا نبى معه ولا بعده » (٥٩) وهذا النهج فى التعبير طريق عرفها العرب لتعظيم المخاطب ، قال أبو منصور الثعالبى (٦٠) « ومن سنة العرب فى هذا الباب أن يقولوا للرجل العظيم والملك الكبير : انظروا فى أمرى ولأن اسادة والملوك يقولون : نحن فعلنا وانا أمرنا ، فعلى قضية هذا الابتداء يخاطبون فى الجواب ، كما قال تعالى عمن حضره الموت « رب أرجعون » (٦١) .

وان تلاقى التعبيرات واتساقها حول المعنى الواحد فى القرآن الكريم لدليل لاعجازه ، وبرهان على أنه من عند الله تعالى « أفلا

---

(٥٧) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .
(٤٨) الآية ٥١ من سورة المؤمنون .
(٥٩) الاتقان جـ ٢ ص ٣٣ .
(٦٠) فقه اللغة وسر العربية ص ٤٨٩ .
(٦١) الآية ٩٩ من سورة المؤمنون .

يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (٦٢) ويصف القرآن الرسول فى هذا الموضع بكونه «منهم» كما صف ايضا بهذا الوصف فيما حكى من دعاء أبى الانبياء عليه الصلاة والسلام فى سورة البقرة « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » (٦٣) وكما جاء ايضا فى امتنان الله تعالى على المؤمنين فى سورة آل عمران « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » (٦٤) ، ونحو ذلك فى سورة براءة « لقد جاءكم رسول من انفسكم » (٦٥) وكونه منهم يدخل أيضا فى المنة ، ووجه المنة فى ذلك أنه « اذا كان منهم كان اللسان واحدا فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه ، وكانوا واقفين على احواله فى الصدق والأمانة ، فكان ذلك أقرب الى تصديقه والوثوق به ، وفى كونه من أنفسهم شرف لهم كقوله «وانه (٦٦) لذكر لك ولقومك» (٦٧) ويضع النظم الكريم أمامنا صورتين متقابلتين : صورة هؤلاء الأميين وقد بعث فيهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأبلغهم رسالة ربه، فزكوا وعلمهم الكتاب والحكمة فارتقوا وسموا ، وصورتهم قبل أن يبعث فيهم حيث كانوا غارقين فى الضلال ، تحيط بهم ظلماته ، وتعصف بهم موجاته . ويرسلها النظم اشارة خاطفة « وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » تحمل فى طياتها كل فساد الجاهلية التى وصفها جعفر ابن أبى طالب لنجاشى الحبشة حين بعثت قريش اليه عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ليكرهاه فى المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته ... فقال جعفر :

---

(٦٢) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٦٣) الآية ١٢٩ من سورة البقرة .
(٦٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٦٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .
(٦٦) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .
(٦٧) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٧٦ .

« أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميته ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده،ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات : وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » (٦٨) .

وهكذا يوجز القرآن الكريم هذه السبل المتعددة للضلال قبل مشرق الاسلام فى تلك العبارة التى هى غاية فى الايجاز ، مع دلالتها على تمكن هذا الضلال منهم حيث هم فيه ، مع ماتحمله من طول العهد بهذا الضلال حتى ظهر واتضح وأبان عن نفسه وعنهم ، اذ هو ضلال مبين ، وليس بينا .

وتوضع أمامنا الصورتان تضاد كل منهما الأخرى فاذا حسن الصورة التى صنعها الوحى الالهى يتألق ، ويزيد من تألقه أن توضع بازائه تلك الصورة الشوهاء لضلال الجاهلية ، وهذا نهج تعبيرى يكثر اعتماد القرآن عليه فى ابراز المحاسن ، وتجسيم المقابح « والضد يظهر حسنه الضد » .

ولا يخفى علينا دور التصوير البيانى الذى اعتمد عليه القرآن الكريم فى رسم صورة ما كانوا عليه من ضلال حيث استعمل « فى »

---

(٦٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٦ ، وهى رواية ابن اسحاق عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها .

داخلة على ما ليس له احتواء (٦٩) وهو الضلال استعمالا مجـــازيا هو من قبيل الاستعارة التبعية فى عرف البيانيين (٧٠) لكونها فى الحرف، كما أن فى اسناد الابانة الى الضلال رسما لصورة أخرى تجعل الضلال نفسه هو الذى يكشف عن مبلغ ترديهم وهو نوع آخر من المجاز يكون فى الاسناد ، والمجاز هنا مثله فى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية » وهكذا تتعانق فى نظم الآية الكريمة الصورة البيانية مع المجاز العقلى وبديع الطباق فى اطار من الصياغة التى احتوت من الألفـــاظ ما فاض اشعاعا بمعانيه المرادة منه مثل : بعث ، رسولا ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم الى مخره فهل لهذا الاجتماع والتزاحم صلة بما لاجمعة من معنى ؟

ونوالى متابعتنا للنظم القرآنى لنرى كيف تحقق فى هذه السورة الكريمه لون آخر من الجمع ، انه جمع آخر هذه الأمة بأولها وتلاقيهم جميعا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغهم رســـالة ربه حين « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » • ويســـوق الكتاب الكريم كلمة واحدة يصوغها فى صورة نكرة لتتسع لكل أجيـــال هذه الأمة بعد جيلها الأول من الصحابة الذين تلقوا مباشرة عن النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كما تتسع لكل شعوب الأرض من غير العـــرب الأولين الذين عرفوا بالاميين انها كلمة « آخرين » فى قوله تعـــالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » وهى فى موضعها مجرور عطف على الأميين ••• ويجوز أن تنتصب عطفا على المنصوب فى ويعلمهم ، أى

---

(٦٩) أنظر : حاشية الصبان على شرح الأشمونى جـ ٢ ص ٢١٨ فقد ذكر أن الظرفية الحقيقية لقى : أن يكون الظرف له احتواء وللمظروف تحيز فان فقد معا أو فقد أحدهما فالظرفية فى •• فى حينئذ مجاز •

(٧٠) انظر : الايضاح للخطيب القزوينى جـ ٣ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ •

يعلمهم ويعلم آخرين ، لأن التعليم اذا تناسق الى آخر الزمان كان كله مستندا الى أوله ، فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه (٧١) .

ويؤيد اتساع كلمة آخرين لما ذكرنا ما ورد فى مدلولها من روايات متعددة :

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يده على سلمان الفارسى ثم قال : « لو كان الايمان عند الثريا لنا له رجال أو رجل من هؤلاء » (٧٢) ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله تعالى « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال : هم الأعاجم وكل من صدق النبى ــ صلى الله عليه وسلم من غير العرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا ابراهيم بن العلا الزبيدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ان فى أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » .. يعنى بقية من بقى من أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم » (٧٣) .

ويتأكد لهذه الكلمة بعد المدى حيث « تشير الى أن هذه الأمة

---

(٧١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٧٢) الحديث رواه البخارى ، ورواه مسلم والترمذى النسائى وابن أبى حاتم وابن جرير (انظر : تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٣) .

(٧٣) تفسير ابن كثير أيضا جـ ٤ ص ٣٦٣ .

موصولة الحلقات ممتدة فى شعاب الأرض وفى شعاب الزمان،تحمل هذه الأمانة الكبرى وتقوم على دين الله الأخير » (٧٤) ٠

« وهو العزيز الحكيم » القوى القادر على الاختيار ، الحكيم العليم بمواضع الاختيار ، ويجىء هذا التذييل لتلك الآية الكريمة فى أسلوب من أساليب القصر حيث عرف ركنا الجملة ليقصر هذين المعنيين « العزيز الحكيم » عليه سبحانه ، ولهذا القصر فى هذا الموضع قيمته فى تأكيد بقاء الدعوة الاسلامية على مدى الزمان ، واختيار حملتها الأمناء الذين يقومون بواجبهم نحوها فى كل عصر ، وأن الكائدين لها لن ينالوا منها ٠

ولنا بعد ذلك أن نسأل : لم وسطت التزكية فى هذا الموضع « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » ؟ بينما فى سورة البقرة تأخرت التزكية فى قوله تعالى فى حكاية دعاء أبى الأنبياء « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (١) ويجيب على سؤالنا ذاك العلامة الالوسى فيبين أن توسيط التزكية « للايذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ، ولو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى : « ربنا وابعث بيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » لتبادر الى الفهم عد الجميع نعمة واحدة » (٧٦) ٠

بقى أمر تقديم التعليم على التزكية فى آية البقرة ، ولعله كان ايذانا بشرافة التحاية » (٧٧) ٠

---

(٧٤) فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٥٦٧ ٠
(٧٥) الآية ١٢٩ من سورة البقرة ٠
(٧٦،٧٧) روح المعانى جـ ٤ ص ١٠١ ٠

وعلى ذلك تكون مخالفة الترتيب بتوسيط التزكية مراعاة لمقام امتنان الله تعالى ببعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الأميين وفى آخرين من دونهم لما يلحقوا بهم ومقام الامتنان يستدعى عد النعم واحـــدة واحدة فكانت المخالفة هى الوسيلة الى ذلك ، وبهذا جاء النسق نفســه بتوسيط التزكية فى قوله تعالى ممتنا على المؤمنين « لقد من الله عــلى المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهـــم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٧٨). ويجىء التعقيب على هذه المنن بالاعلاء من شأنها حين يقرر القــرآن انها فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، فيستعمل اسم اشارة للبعيـــد دلالة على بعد مكانة هذا الاختيار لهذا النبى ولأمته ، كما يعبر بالفعـــل المضارع «يؤتيه» دلالة على الدوام التجددى فى اختيار حملة هـــذه الدعوة ، وأنهم محل فضل الله ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فبعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الأميين منة وفضل ، وامتداد دوره وبقاء مدده فى أمته ـ الى يوم الدين ـ امتداد لهذا الفضل ، والذين يقومون بحمل دعوته وابلاغها الناس هم محـــل فضل الله تعالى ولمـــا كان هؤلاء يتعاقبون ـ جيلا بعد جيـــل ـ كان فضل الله فيهم ، مع تجدد ايتائه فى كل جيل ممن أعدوا لحمل هذه الأمانة ، ومن ثم تبدو قيمة التعبير بالفعل المضارع فى « ذلك فضل الله يؤتيـــه من يشاء » وقد أحيط هذا الفضل بكثير من وسائل التشريف والتعظيم حيث أضيف الى لفظ الجلالة ، مع كون محله مرتبطا بمشيئته سبحانه ، ثم التعقيب بـ « والله ذو الفضل العظيم » الأمر الذى يجعل هذا الفضل بعيدا عن أن تكون له حدود كما ينأى به عن أن تحيط به العقول .

---

(٧٨) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

ولما كان أمر بعثة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وختم الرسالات به قد شاع فى الكتب السابقة ، شيوعا جعله معروفا بوضوح حتى ان « بنى قريظة وبنى النضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه .. وكانوا اذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : اللهم انا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه فى آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا ، فينصرون » (٧٩) وكانوا أشد معرفة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم بأنبائهم ، وقد روى ذلك عمن أسلم منهم ، يقول عبد الله بن سلام « لأنا أشد معرفة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منى يا بنى ، فقال له عمر بن الخطاب : وكيف ذاكيابن سلام ؟ قال : لأنى أشهد أن محمدا رسول الله حقا ويقينا وأنا لا أشهد بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ما أحدث النساء » (٨٠) . فأمر بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان معروفا وواضحا بصفاته وخصائص دعوته ، ومع هذا كله فان أحبار يهود جحدوا رسالته فكان شأنهم ـ وقد عانوا فى حفظ التوراة وتعلمها مع عدم الانتفاع بما علموا ـ شأن الحمار يحمل كتبا ضخمة من كتب العلم المفيد النافع ، مع عدم انتفاعه منها بشىء .

ومن هنا جعل القرآن الكريم مثلهم فى كل ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا فجاء قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » جاء هذا المثل مرتبطا بما سبقه من

---

(٧٩) روح المعانى جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٨٠) أسباب النزول للواحدى ص ٢٩ ، ٣٠ .

اى اذ الآيات السابقة تناولت الامتنان ببعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الأميين وفى آخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهذه الآية تتضمن الاشارة الى تجهيل هؤلاء الذين كذبوا برسالته ، مع وضوح أمره وظهور أدلته واشتهاره بنعوته فى التوراة ، وكأنه قيل هو الذى بعث المبشر به فى التوراة المنعوت فيها بالنبى الأمى ، المبعوث الى أمة أميين ، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار (٨١). الخ « والعلم بالشىء ثم نقض هذا العلم بسلوك يخالفه مدعاة للعجب فكانت تلك الحال جديرة أن تسمى مثلا ، « والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير ، يقال : مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بموردة مثل ، ولم يضربوا مثلا ، ولا رأوه أهلا للتسيير ولا جديرا بالتداول والقبول الا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه (٨٢) .

فحين نرى كلمة « مثل » تستفتح بها صورة ما نشعر اننا أمام حال عجيبة تبين ، فيكون لفظ : مثل « قد استعير .. للحال ، أو الصفة أو القصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة » (٨٣) كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الحمار يحمل أسفارا .

والآية الكريمة حين تحدثت فى شأن هؤلاء ذكرتهم معرفين باسم الموصول ليمكن من خلال التعريف به وما اشتملت عليه جملة الصلة الايماء الى وجه بناء الخبر الذى بنى عليه ، فان الموصول وصلته « الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها » نرى فيهما ايماء الى خبر من شأنه تقبيح هؤلاء والذم لهم ، « وحملوا التوراة » أى علموها

---

(٨١) روح المعانى جـ ٢٨ ص ٨٤ .

(٨٢،٨٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٩٥ .

وكلفوا العمل بما فيها ، والتحميل فى هذا شائع يلحق بالحقيقة ، (٣) والفعل «حملوا» بما فيه من تضعيف يحمل معنى مقدار التحميل ، وقد ذكر هذا المعنى فى الفعل المضعف الصبان فى حاشيته على شرح الاشمونى نقلا عن الزمخشرى والسهيلى ، قال : قال الزمخشرى والسهيلى وغيرهما : « التضعيف يقتضى التكرار والتمهل » (٨٥) ولهذا التكرار صلة وثيقة بتفسير حملوا بمعنى (علموا) اذ التعليم من مقتضياته التكرار وهذا كله مقتضاه فى النهاية وقوفهم بوضوح على أخبار نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — وصياغة الفعل مبنيا للمجهول مسندا الى واو الجماعة التى هى فى الأصل مفعول أول ، وحذف الفاعل للعلم به لكون الفعل قد وقع على التوراة مما يؤكد العلم بفاعله ، هذا كله يؤكد اشتهار أمره — صلى الله عليه وسلم — فى كتبهم حتى انه لوضوحه لم يكن بحاجة الى أن يذكر لفعل بشر به فاعل ، ولعل ذلك المعنى يرتبط بقوله تعالى « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨٦) وفى هذا المعنى قال على بن أبى طالب وابن عمه أبن عباس رضى الله عنهما : « ما بعث الله نبيا من الأنبياء الا أخذ عليه الميثاق : لئن بعث الله محمدا وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه » (٨٧) وذكر الميثاق بلفظ الاصر فى « وأخذتم على ذلكم اصرى » يجعل لهذا الميثاق مناسبة مع الفعل « حمل » فيكون وقوعه

---

(٨٤) روح المعانى جـ ٢٨ ص ٨٤ .

(٨٥) حاشية الصبان على شرح الأشمونى جـ ٢ ص ٩٦ .

(٨٦) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

(٨٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٨ .

على التوراة باعتبار ما فيها من عهود ومواثيق لها قدرها وجلالتها لكونها مواثيق مؤكدة تحتاج الى جمع الهمة فى الحفاظ عليها ومما يستأنس به لهذا التفسير أن الفعل « حمل » قد وقع مضارعه على لفظ الاصر صريحا فى قوله تعالى « ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا » (٨٨) واذا كان معنى الاصر : العهد والذنب والثقل (٨٩) فالثقل معنى لازم لجميع تلك المعانى مما يقوى صلته بايقاع الحمل عليه •

وثمة تفسير أخر للحمل بأنه « ليس •• من الحمل على الظهر وانما هو من الحمالة بمعنى الكفالة ، والضمان ، ومنه قيل لكفيل الحميل ، والمعنى ضمنوا أحكام التوراة ثم يضمنوها ولم يعلموا بما فيها ، قال الأصمعى : الحميل الكفيل ، وقال الكسائى : حملت له حمالة أى كفلت به » (٩٠) •

وسواء أفسر الحمل بالتعليم المصحوب بالتكليف ، أم بالكفالة والضمان ، فن الغاية الاعلام بان البشارة بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبصفته المميزة له كانت واضحة فى كتابهم حتى تناقلتها ألسنتهم وأذاعوها ، وحين بعث ــ صلى الله عليه وسلم جحدوا نبوته، وأنكروا رسالته فكانوا جديرين أن يشبهوا بالحمار يحمل أسفارا ، وفى تلك الصورة جاءت كلمة أسفار نكرة اشعارا بعظم حجمها مع ما فى لفظ الأسفار من معنى الكشف ، واسناد الحمل الى الحمار يقصد به تحقيق معنى التعب بالحمل مع عدم النفع بالمحمول لما اشتهر به الحمار من الجهل ، يقول الجاحظ « والحمار هو الذى ضرب به القرآن المثل فى بعد

---

(٨٨) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة •

(٨٩) القاموس : مادة (أصر) • وكذا غريب القرآن للسجستانى ص٤١

(٩٠) مفاتيح الغيب للرازى : ٣٠/٥ مجلد ١٥ •

الصوت ، وضرب به المثل فى الجهل ، فقال « كمثل الحمار يحمل أسفارا » • فلو كان شىء من الحيوان أجهل بما فى بطون الأسفار من الحمار ، لضرب الله المثل به دونه » (٩١) • هذا الى أن فى الحمار من الذل والحقارة ما ليس فى غيره من الحيوانات ، وانه ذلول فيكون حمل الأسفار عليه أتم وأعم ، وبين لفظى الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد فى غيره من الحيوانات (٩٢) وهذه الصورة تمثيل مركب ، اذ الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ، ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض •

بيان ذلك أنه احتيج الى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم وأن يثلث ذلك بجهل ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود (٩٣) •

وهذه الصورة بما فيها من تركيب هى أروع صور التمثيل ، وقد أشار عبد القاهر الى ذلك قائلا : « ينبغى أن تعلم أن المثل الحقيقى ، والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك الا من جملة الكلام ، أو جملتين أو أكثر

---

(٩١) الحيوان جـ ٢ ص ٢٥٥ •
(٩٢) انظر : مفاتيح الغيب للرازى • مجلد ١٥ ص ٥ •
(٩٣) أسرار البلاغة ص ٧٤ طبعة المنار ١٩٥٩ م •

حتى ان التشبيه كما كان أوغل فى كونه عقليا محضا كانت الحاجة الى الجملة أكثر » (٩٤) .

على أن فى صورة المشبه الذى هو أحبار يهود جانب بجدر الاهتمام به وتدبره ، وذاك ما تشير اليه « ثم » من بعد زمنى ، فانهم وقد علموا التوراة وكلفوا العمل بما فيها — قد طال بهم العهد بعد التعليم ومقتضى ذلك أن تكون قضايا الايمان قد رسخت فى النفوس واستقرت فاذا ما ظهر محمد — وقد بشر به فى التوراة — استبقوا الى الايمان به ، لكن الذى حدث كان مخالفا لذلك تماما ، حيث لم يجد عندهم طول الامد وحين حل موعد الاختيار العملى لتطبيق الايمان على العلم اذا هم ينكصون على أعقابهم ، ويتخلف ايمانهم عن أن يواكب علمهم ، واذا كانوا قد علموا التوراة وعانوا فى تحصيلها ، فما أفادوا شيئا فى مجال انتفاع العالم بعلمه ، فصاروا حين .. حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

ولا شك أن (ثم) بما تفيده من طول العهد بالعلم ومدارسته ، وامتداد الزمن بين التحصيل وعدم التطبيق ، تسهم فى مضاعفة جهلهم وانطماس بصائرهم .

واذا كان لتلك الصورة ارتباط بما قبلها من آى من حيث هى تقبيح لهؤلاء الذين جحدوا نبوة محمد الذى بعث فى الأميين ، مع تبشير كتبهم به ، فانها أيضا تتصل اتصالا وثيقا بموضوع سورة الجمعة ، ان موضوع السورة هو تحميل هذه الأمة أمانة الدعوة الى الاسلام ، ولاسيما خطباء الجمعة الذين يقفون من جماعات المسلمين — كل أسبوع — موقف الداعية الذى يبلغ رسالة الله ، وما أجدر هؤلاء جميعا

---

(٩٤) أسرار البلاغة ص ٧٩ .

أن يكونوا على مستوى من السلوك القويم الذى يتفق مع ما يدعون اليه ، الا صاروا « كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

والذى يتأكد من هذا المثل القرآنى ان قضية الدعوة الاسلامية « ليست مسألة كتب تحمل وتدرس ، انما هى مسألة فقه ، وعمل بما فى الكتب » (٩٥) واذا كان احبار يهود قد صوروا بصورة الحمر يحمل أسفارا فما اقبح هذه الصورة . ولذا كان التذييل انسب ما يكون عقب ذكر هذا المثل : « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » ، « والوصف وان كان فى الظاهر للمثل فهو راجع الى القوم ، فكأنه قال : بئس القوم قوما مثلهم هكذا » (٩٦) واذا كان اليهود لم يظهر للتوراة اثر فى سلوكهم على الرغم من طول مدارستهم لها وتعلمهم اياها ، وذلك أمر شأنهم واستحقوا به أن يوصفوا بأنهم فى هذا « كمثل الحمار يحمل أسفارا » فان النظم الكريم يضع بجوار خروجهم على كتابهم ومخالفتهم اياه افتراء آخر من مفترياتهم ذلك هو زعمهم أنهم « أولياء لله من دون الناس » وهذا ما تسمعه يتردد حتى اليوم ، اذ يزعمون : أنهم شعب الله المختار ، وأن غيرهم من الأمم هم الأمميون ، أو الأميون ، وأنهم — من ثم — غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين : « قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » (٩٧) .. الى آخر هذه الدعاوى التى تفترى الكذب على الله بلا دليل . وهنا يواجههم القرآن الكريم مواجهة واضحة يكشف بها زيفهم ، ويؤكد كذبهم ، فيطالبهم أن يتمنوا الموت ليثبتوا صدق دعواهم فى أنهم أولياء لله من دون الناس ، وهكذا تنظم هذه الفرية فى

---

(٩٥) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٥٦٧ .

(٩٦) مفاتيح الغيب للرازى ص ٦ جـ ٣٠ مجلد ١٥ .

(٩٧) الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

سلك واحد مع ما سبقها من افتراء على التوراة بكتمان آيات الله فيها ، وتجاف لما فيها من قضايا الايمان ، غير ان الكتاب المعجز يمرن بهذه الفريه دليل دحضها حتى لا تصور الا بطلانها ، ويؤكد بطلانها مخبرا بان تمنى الموت لن يكون من اليهود فيضيف الى اعجازه البلاغى هذا الاخبار عن المستقبل الذى صدقه واقعهم وسلوكهم ، فما تمنى احد منهم الموت ، وبهذا تتعدد جهات الاعجاز للكتاب الكريم • « قل يأيها الذين هادوا : ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل أن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » •

وحين يخاطبون فى هذه الدعوى الكاذبة يجىء الخطاب موحيا ببعدهم عن الله تعالى ، فيخاطب الله تعالى رسوله — صلى الله عليه وسلم — ويأمره أن يطلب اليهم تمنى الموت ، وتعرض دعواهم فى صورة تؤكد مبلغ وهنها ، فهى زعم « والزعم : القول الحق والباطل والكذب • ضد وأكثر ما يقال فيما يشك فيه » (٩٨) وسياق النظم هنا يجعل المراد بالزعم معنى سوى القول الحق ، ثم يستعمل النظم أداة الشرط « ان » التى للشك للاشارة الى أن هذا الزعم لا ينبغى أن يجزم به لوجود ما يكذبه (٩٩) وتجىء ولايتهم المزعومة لله غير مضافة الى لفظ الجلالة على النحو الذى جاءت عليه فى قوله تعالى « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٠٠) وذلك الفصل بهذه اللام بين كلمة أولياء وبين لفظ الجلالة « للايذان بالفرق بين مدعى

---

(٩٨) القاموس المحيط •

(٩٩) انظر : روح المعانى ٢٨/٨٥ •

(١٠٠) الآية ٦٢ من سورة يونس •

أولايه ومن يخصه عز وجل بها » (١٠١) وتحكى الدعوى على ما هى عليه فى زعمهم ، فيجىء قوله تعالى : « من دون الناس » حالا من الضمير الراجع الى اسم ان أى متجاوزين عن الناس (١٠٢) ويقع جواب الشرط ، « فتمنوا الموت » متوسطا بين شرطين والقاعدة : انه اذا اجتمع شرطان وتوسط الجواب بينهما كان الأول قيدا فى الثانى (١٠٣) وعلى هذا يكون المعنى : ان صدقتم فى زعمكم انكم أولياء الله والولى يؤثر الآخرة ومبدؤها الموت فتمنوه » (١٠٤) ، ومن خلال هذا الأمر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — يبدو مؤكدا كذب اليهود فيما زعموه من أنهم أولياء لله من دون الناس ، وكذا فيما قالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هودا ، وكذا فيما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وكذا فى قولهم : أن الاخرة لهم عند الله خالصة ، وقد روى أيضا فى سبب نزول هذه الآية « انه لما ظهر رسول الله عليه الصلاة والسلام كتب يهود المدينة ليهود خيبر : ان اتبعتم محمدا أطعناه ، وان خالفتموه خالفناه ، فقالوا : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزيز ابن الله والأنبياء ومتى كانت النبوة فى العرب ، نحن أحق بها من محمد ولا سبيل الى اتباعه » (١٠٥) وقد تأكد من خلال نظم الآية الكريمة مدى بعد اليهود عن الله تعالى ، وزيف دعاواهم ، وتحدى الرسول لهم ، وأن هذا التحدى قد عجزوا عن مواجهته ، وكأنه يقول لهم : « لو كان قولكم حقا وأنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا الى دار كرامته التى أعدها لأوليائه » (١٠٦) .

---

(١٠١) روح المعانى ٢٨/٨٤ . (١٠٢) روح المعانى ٢/٨٤ .

(١٠٣) حاشية الصاوى على الجلالين ص ٢٠٥ جـ ٤ .

(١٠٤) تفسير الجلالين ص ٢٠٥ جـ ٤ .

(١٠٥) روح المعانى ٢٨/٨٤ .

(١٠٦) مفاتيح الغيب للرازى ص ٦ جـ ٣٠ مجلد ١٥ ، وكذا الكشاف ٤/١٠٣ .

ثم يعقب النظم الكريم هذا التحدى اخباره أنهم لا يكون منهم تمنى الموت بسبب ما يعرفون من « أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنن اليه،وما يرجون الثواب والقربى عيه،وانما قدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وما وراءه ، والذى لم يقدم الزاد يجفلمن ارتياد الطريق » (١٠٧) .

« ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ،ويراعى هنا نفى تمنى الموت بلا ، بينما نفى فى سورة البقرة بلن فى « ولن يتمنوه ابدا » لأن دعواهم — فى سورة البقرة — بالغة قاطعة وهى : كون الجنة لهم بصفة الخلوص ، فبالغ فى الرد عليهم بلن ، وهو أبلغ ألفاظ النفى ، ودعواهم فى الجمعة قاصرة مترددة ، وهى زعمهم أنهم أولياء الله ، فاقتصر على (لا) (١٠٨) . ووصفت دعواهم هنا بكونها قاصرة مترددة لانها ليست المطلوب الذى ليس وراءه مطلوب ، بخلاف دعواهم فى سورة البقرة أن الدار الاخرة خالصة لهم من دون الناس » (١٠٩) .

وجاءت كلمة « أبدا » حال النفى بلا ، وحال النفى بلن ، تأكيدا لحبهم الحياة وأن عدم تمنيهم الموت هو شأنهم أبد الدهر ، وهذه — كما سبق أن ذكرنا — معجزة وقد زادنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ايمانا ويقينا بها حين خاطبهم قائلا « والذى نفسى بيده لا يقولها أحد منكم الا غص بريقه » فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق

---

(١٠٧) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٣٥٦٨ جـ ٦ .

(١٠٨) أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى ص ٣٢ .

(١٠٩) تعليقات على أسرار التكرار فى القرآن لمحققه الأستاذ عبد القادر عطا ص ٣٣ .

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى » (١١٠) .

وأحكام القرآن ترتبط بأسبابها ، ولذا يذكر السبب فى كراهيتهم للموت وهو سوء أعمالهم ، ويوجزه فى « بما قدمت أيديهم » واليد على حقيقتها والتعبير بها يشمل ما قدموا بسائر الأعضاء ، وهو أبلغ فى الذم ، أو أن اليد كناية عن نفس الشخص ، أو عن القدرة لما أنها من بين جوارح الانسان مناط عامة صنائعه ، ومدار أكثر منافعه . (١١١)

« والله عليم بالظالمين » تهديد لهم (١١٢) ، وقد وضع المظهر فى موضع المضمر لذمهم ، والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى كل ما يأتون ويذرون (١١٣) والعلم هنا يراد به لازمه وهو مجازاتهم على سوء صنيعهم . ولعلنا نلحظ فى نسق الآيات منذ تناولت اليهود توالى صفات تنقيصهم ، فهم بعد أن حملوا التوراة لم يحملوها ، وهم فى ذلك كالحمار يحمل أسفارا ، وهم موضع ذم لتكذيبهم بآيات الله ، كما أنهم بمنأى من هدايته تعالى لظلمهم ، وهم فى دعاواهم القرب الى الله وأهمون . ويكرهون الموت كراهية شديدة لسوء صنيعهم ، ويتكرر وصفهم بالظلم مرة أخرى « والله عليم بالظالمين » ومع تكرره يجىء وقد عبر عنه بالاسم الامر الذى يؤكد ثبوت ظلمهم وأنه منهم سجية وطبع .

وفى نهاية هذا التحدى وما صحبه من بيان لحب يهود الحياة وكراهيتهم للموت ، يقرر القرآن الكريم حتمية الموت وما يعقبه من

---

(١١٠) الكشاف ٤/١٠٣ .
(١١١) ينظر : روح المعانى ١/٢٩٧ .
(١١٢) الكشاف ١/٢٩٨ .
(١١٣) ينظر : روح المعانى ٢٨/٨٥ .

حساب : « قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون » •

وتقرير حتمية الموت فى مواجهة تعلق اليهود بالحيـاة يوثق من ارتباطه بما قبله من آى ، كما انه أيضا شديد الارتباط بسورة الجمعـة التى تحمل الأمة الاسلامية أمانة الدعوة الى هذا الدين ، اذ « هى لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين ، تقـر فى الأخلاد حقيقة ينساها الناس وهى تلاحقهم أينما كانوا ، فهذه الحياة الى انتهاء ، والبعد عن الله فيها ينتهى للرجعة اليه فلا ملجأ منه الا اليه ، والحساب والجزاء ــ بعد الرجعة ــ كائنان لا محـالة فلا مهـرب ولا فكاك » (١١٤) •

وتتعدد المؤكدات لتقرير حتمية الموت وتتنوع فهى : اسمية الجملة ودخول أن عليها « ان الموت الذى تفرون منه » والاخبار بجملة اسمية مؤكدة بان أيضا « فانه ملاقيكم » • مع كون الخبر فى جملة الخـبر اسما « ملاقيكم » الأمر الذى يفيد ثبوت هذه الحقيقة ، وأنهـا أمر مقرر ليس حادثا أو طارئا • وقد اقترن الخبر بالفاء لما فى المبتـدأ (اسم ان) من معنى العموم حيث وصف باسم الموصـول ، وحكم الموصوف حكم الموصول (١١٥) بهذا صار اسـم ان متضـمنا معنى الشرط •

وقرىء « انه ملاقيكم » دون فاء • وهى قراءة زيد بن على (١١٦) رضى الله عنه وفى قراءة ابن مسعود • تفرون منه ملاقيكم (١١٧) من

---

(١١٤) فى ظلال القرآن ٢٨/٣٥٦٨ مجلد ٦ •
(١١٥) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٤ ص ٢٠٩ •
(١١٦) تفسير الكشاف جـ ٤ / ص ١٠٤ •
(١١٧) الكشاف جـ ٤ / ص ١٠٤ وكذا : مفاتيح الغيب للرازى ص ٧ جـ ٢٩ مجلد ١٥ •

غير انه ، ووجهت قراءة زيد توجيها له معنى جميل حيث جعل « ان الموت الذى تفرون منه » كلاما برأسه ، أى أن الموت هو الشىء الذى تفرون منه ، ثم استؤنف « انه ملاقيكم » (١١٨) .

وهذه القراءة على النحو الذى وجهت به هى طريق من طرق القصر طريقه تعريف طرفى الاسناد ، فالمسند اليه معرف بأل الجنسية ، والمسند اسم موصول ، وهو قصر صفة الفرار المفهومه من « الذى تفرون منه » على موصوف هو « الموت » أى ما تفرون الا من الموت ، وفى هذا تأكيد لما عليه اليهود من جبن وعجز عن مواجهة الموت ، وقد قرر القرآن الكريم ذلك المعنى فى مواطن أخرى لقوله تعالى « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر » (١١٩) وأثبت سلوكهم صدق القرآن ، ففى حربنا الحديثة معهم فى رمضان ١٣٩٣هـ . (اكتوبر ١٩٧٣م) كانوا يتحصنون خلف ساتر ترابى ارتفاعه عشرون مترا . عدا أشياء أخرى كانوا يتخذونها أستارا ، وكلها تؤكد فرارهم من مواجهة الموت ولن يزال هذا شأنهم الى يوم القيامة ، وقد أخبر بذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا مسلم هذا يهودى خلفى تعال فاقتله ، الا الغرقد فانه من شجر اليهود » (١٢٠) والغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببيت المقدس وقد يقال : « الموت ملاقيهم على كل حال ، فروا أو لم يفروا فما معنى الشرط والجزاء ؟

---

(١١٨) الكشاف ٤/١٠٤ .

(١١٩) الآية ١٤ من سورة الحشر .

(١٢٠) ذكر الامام النووى فى كتابة المسمى : رياض الصالحين أن هذا الحديث متفق عليه . أنظر ص ٦٤٠ .

قيل : ان هذا على جهة الرد عليهم اذ ظنوا أن الفرار ينجيهم، وقد صرح بهذا المعنى وأفصح عنه بالشرط الحقيقى فى قوله :

ومن هاب أسباب المنـــايا تنـــاله
ولو نال أسباب السماء بسلم (١٢١)

وحين نتدبر التعبير القرآني « ان الموت الذى تفرون منـــه فانه ملاقيكم » ندرك أثر آختياره لصيغه وعباراته ، فانفرار من الموت جاء فى صيغة فعل مضارع ، وآرى ذلك لافادة الدوام التجددى نعم انه أمر حادث لكنه يستمر حدوثه ويتوالى ، وهو ما يليق بجبن اليهود ، أمـــا حتمية الموت فقد عبر عنها بالاسم «ملاقيكم» ليفيد الثبوت وفى هـــذا الاسم أيضا ما يدعو الى التأمل فهو يفيد المفاعلة اذ هو مصـــوغ من الفعل لاقى دون لقى ، والمفاعلة هنا يعني بها احاطته بهم من كل جهة، واشتراكهم أيضا فى تحقيق ملاقاته لهم بفرارهم الذى ترتب عليه هذه الملاقاة ، ولذا جاءت الفاء فى الخبر مع أن دخولها فيه ليس بلازم وانما هى لنكتة تليق بالمقام وهى هنا المبالغة فى عدم الفوت ، وذلك أن الفرار من الشىء فى مجرى العادة سبب الفوت عليه ، فجىء بالفاء لافادة أن الفرار سبب الملاقاة مبالغة فيما ذكر وتعكيسا للحال » (١٢٢) • وليس شىء أعجب من أن يفر انسان من شىء ليلاقيه ذلك الذى فر منـــــه • وتنتهى الآية الكريمة بذكر العاقبة المخوفة التى فروا من الموت بسببها، انها الرجعى الى الله تعالى ، وتلقى الجزاء على العمل ، وتصاغ معانيها بما يتناسب مع سياقها ، فقد سبقها الفرار من الموت وملاقاته ، فيجىء بعقبهما « ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتـــــم تعملون » انها الاعلان عن تحقيق الغاية من الخلق ، وأن كل محاولة

---

(١٢١) مفاتيح الغسب للرازى ص ٧ جـ ٣٠ مجلد ١٥ •
(١٢٢) روح المعانى جـ ٢٨ ص ٨٥ •

افلات أو نسيان لا تنال من تلك الغاية التى هى العودة الى الله للجزاء، لكن هؤلاء الفارين يجدر أن تردهم الى الله تعالى قوى لا قبل لهم بدفعها ، ولذا جاء الفعل « تردون » مبنيا للمجهول تلاؤما مع معنى عدم الرغبة فى الموت وفى كل ما يعقبه ، والى من يردون ؟ الى الذى لا يخفى عليه خافية « الى عالم الغيب والشهادة » ولعالم الغيب والشهادة هنا من التناسب ما لا يخفى ، اذ الوعيد لهؤلاء الذين كتموا أشياء جاءت فى كتبهم ، وأسروا فى أنفسهم عداوة للحق ، والمعنى — والله أعلم — « ثم تردون الى الذى هو عالم ما أشهدتم الخلق من التوراة والانجيل ، وعالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد — صلى الله عليه وسلم — وما أسررتم فى أنفسكم من تكذيبكم رسالته ، « فينبئكم بما كنتم تعملون » بالجزاء ان كان خيرا فخير ، وان كان شرا فشر •• وهو الوعيد البليغ والتهديد الشديد » (١٢٣) •

وبعد هذا الشوط الطويل الذى قطعنه بنا سورة الجمعة تذكرنا بمنة الله تعالى فى بعثه النبى الأمى — صلى الله عليه وسلم — الى العرب وغير العرب ، وتكشف الاستار عن خبايا يهود ، وتفضح بواطنهم ، وتصفهم بما يستحقون من غباء وجهل حين كتموا البشارة التى جاءتهم بها كتبهم بشأن النبى الأمى ، عليه الصلاة والسلام ، ثم تبطل دعواهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه فتطالبهم بتمنى الموت برهانا على صدقهم فى تلك الدعوى ، لكنهم لسوء سلوكهم وقبح صنيعهم لا يتمنون الموت . وأخبر القرآن بأنهم لا يتمنونه ولن يتمنوه وأكد الواقع صدق القرآن، ثم أخبر بأن الموت ملاقيهم — فروا منه أم لم يفروا — وأن مردهم أخير الى الله ليجزيهم على عملهم • بعد هذا كله تصل بنا السورة الى الدور الذى نيط بهذه الأمة ، انه حمل أمانة الدعوة الاسلامية ، وفريضة

---

(١٢٣) مفاتيح الغيب ٧/ ٣٠ مجلد ١٥ •

الجمعة هى الصورة المستمرة ، والمطردة والمنظمة ، لتحقيق هذا الدور، ويتصدر هذا الأمر بنداء المؤمنين ، وهو نداء التشريف كما أنه نداء التكليف « يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير كم ان كنتم تعلمون * فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * » .

والآيتان ينتظمان مع ما سبقهما من آيات ، وذلك « أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا طيباتها كذلك ، فنبههم الله تعالى بقوله « فاسعوا الى ذكر الله » أى الى ما ينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية » (١٢٤) كما أن من وجوه أرتباط الآيتين بما قبلهما ما قيل عن بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث « أفتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم فى قوله « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » ، وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارا ، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة » (١٢٥) .

ولعل من وجوه الارتباط أيضا أنه قد تقدم فى أول السورة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» فيكون الأمر بالسعى الى الجمعة بعد ذلك تحقيقا لهذا التعليم ، واعلانا عن استمرار دوره — صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وبقائه الى يوم القيامة ، ولذا فقد ذكر سادتنا الصوفية أن قوله

---

(١٢٤) مفاتيح الغيب للرازى ص ٨ ص ٣٠ مجلد ١٥ .

(١٢٥) الكشاف ٤/١٠٤ ، وكذا مفاتيح الغيب ص ٨ ج ٣٠ .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » يشير الى عدم انقطاع فيضه ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن أمته الى يوم القيامة » (١٢٦) • ويكون ذكر الآيات التي تتعلق باليهود بين بيان دور الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبين ما يفيد استمرار هذا الدور متمثلا فى فرض الجمعة يكون ذكر هذه الآيات اشارة الى الاسباب التى لها عهد الى الأمة الاسلامية بحمل أمانة الدعوة ، وذلك ــ فى ايجاز ــ أن بنى اسرائيل قد كتموا ما أنزل الله ، وخرجوا على منهجه ــ سبحانه ، فلم يعودوا أهلا لحمل أمانة الدعوة الى الله ، فانتقل أمر تلك الأمانة الى الأمة الاسلامية ، وقد هديت هذه الأمة الى كل ما هو حق ، ولذا فان يوم الجمعة الذى عظم منذ بدء الخليقة وضل عنه اليهود والنصارى يهدى الله تعالى أمة الحق اليه ، ويكلفها تعظيمه ، ويجعله ملتقاها ومعلميها من ورثة النبوة ، أولئك الذين تفقهوا فى الدين ونصبوا أنفسهم للدعوة اليه بيانا لأحكامه ، ودرءا لما يثار حوله من شبهات •

ونتناول الآيتين دراسة وتحليلا :

« يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة » النداء : الأذان والمقصود بالأذان هنا ــ لدى جمهرة المفسرين الذى يكون اذا جلس الامام على المنبر يوم الجمعة ، وقد قال بذلك مقاتل (١٢٧) ، واحتجوا بأنه « كان لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مؤذن واحد ، فكان اذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فاذا نزل أقام الصلاة ثم كان أبو بكر وعمر ــ رضى الله عنهما على ذلك ، حتى اذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر ، فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء ، فاذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثانى ، فاذا

---

(١٢٦) روح المعانى ٢٨/٩٥ •

(١٢٧) انظر : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ٣٠/٨ ــ ١٥ •

نزل أقام للصلاة ، فلم يعب ذلك عليه » (١٢٨) • وهم فى ذلك يستندون الى رواية البخارى •• عن السائب بن يزيد قال : كان النـــداء يوم الجمعة أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ فلما كان عثمـان ــ رضى الله عنه ــ وكثر النـاس ــ زاد النـــداء الثـــالث على الزوراء » (١٢٩) •

ومن بلاغة النظم التعبير بـ « اذا » دون ان ، اذ هى تستعمل حال تحقق الشرط ، والشرط هنا الفعل « نودى » والذى يستفاد من التعبير باذا ••• أن وجوب الجمعة يرتبط بالتحقق من سماع النـداء على أن يراد بالسماع السماع بالفعل أو بالقوة ، بحيث يكون فى المكان الذى شأنه أن يسمع فيه النداء ، وهو ما عبر عنه الفقهاء بالمصر وما كان قريبا منه •• وقولهم « سمع النداء : اذا كان المنادى صيتا ، وكان هو (أى المصلى) مستمعا والأصوات هادئة » (١٣٠) هو أيضا مقياس للنداء مستمد من معنى التحقق المستفاد من اذا • وقوله تعالى « نودى » بالبناء للمجهول لأن جواب الشرط يرتبط بالحدث الذى هو النداء أى أن السعى الواجب المأمور به متعلق بوقوع النداء للصـــلاة فى يوم الجمعة ، وفى « للصلاة » ايجاز بالحذف اكون المقصود « لوقت الصلاة يدل عليل قوله « من يوم الجمعة » ولا تكون الصلاة من اليوم ، وانما يكون وقتها من اليوم » (١٣١) ، وهذا ــ فى تقديرى ــ أقـــرب الى

---

(١٢٨) تفسير الكشاف ٤/١٠٤ ، وانظر أيضا : تفســير ابن كثير ٤/٣٣٦ ، وتفسير الرازى ٨/ ٣٠ ، وروح المعانى للألوسى ١٧/٢٨ •

(١٢٩) فتح البارى لابن حجر ٢/٣٩٣ •

(١٣٠) الأم للامام الشافعى رضى الله عنه جـ ١ / ص ١٧٠ •

(١٣١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٨ جـ ٣٠ مجلد ١٥

النظم القرآنى من اعتبار من بمعنى « فى » (١٣٢) لأن الحذف ايجاز كما ذكرنا ، وهو معلوم لوجود ما يدل عليه ، اما اعتبار الحرف ذا معنى آخر سوى معناه الحقيقى فانه لا يناسب ما عرف عن القرآن من عناية باختيار اللفظة لما لها من دلالات فى موضعها لا يمكن لغيرها أن يدل عليها .

ويجىء جواب الشرط أمرا تكليفيا مترتبا على تحقق النداء « فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » ويضع النظم امرين يقابل كل منهما الآخر الأول : السعى الى ذكر الله ، والثانى الذى يقابله هو ترك البيع،على أن المراد بالسعى المضى والاهتمام والتجرد للطاعة، بدليل أنه قوبل بالنهى عن البيع ، ويؤيده قراءة عمر « اذا نودى للصلاة فامضوا » (١٣٣) وليس السعى الذى هو عدو ، كما جاء فى الحديث الشريف « اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون » (١٣٤) اذ السعى فى الحديث قوبل بالمشى .

و « ذكر الله » يقصد به خطبة الجمعة حيث ان الخطبة — مهما اختلفت موضوعاتها هى فى النهاية ذكر لله تعالى . أو هو الصلاة ، وعلى كلا المعنيين فان « ذكر الله » مجاز مرسل علاقته الحالية ، أو الجزئية (١٣٥) ، ويبقى بعد ذلك السر البلاغى فى التعبير عن الخطبة أو الصلاة بـ (ذكر الله) ، ولعل سر ذلك هو توجيه الخطباء الى ما ينبغى أن تدور عليه خطبهم من ربط بالله تعالى ، وبعد عن الخوض فى موضوعات دنيوية استرضاء للسلاطين ، هذا حين يراد به الخطبة وان أريد به

---

(١٣٢) روح المعانى ٢٨/٨٧ ، وتفسير الجلافية ٤/٢٠٩ .
(١٣٣) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٢/٣٩٠ .
(١٣٤) الحديث أخرجه البخارى ، وانظر : فتح البارى ٢/٢٩٠ .
(١٣٥) انظر : روح المعانى ٢٨/٩٠ ، والانتصاف لابن المنير ٤/١٠٥ .

الصلاة فان السر البلاغى فى التعبير به عنها هو أن يتجرد المصلون تجردا تاما لله تعالى فى صلاتهم ، ولتكن هذه الصلاة التى جمع لها المسلمون ذكرا خالصا له ــ سبحانه .

والبيع الذى نهى عنه رمز لكل عمل دنيوى ، وتخصيصه بالذكر لما فيه من غلبة معنى الكسب .

« ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » الاشارة الى : السعى وترك البيع » واستعمل لهما اسم اشارة لبعيد رفعا لقدرهما واعلاء لشانهما ، والموازنة هنا باسم التفضيل « خير » انما هى بين نفع الآخرة ونفع الدنيا (١٣٦) وفضل القرآن نفع الآخرة لما له من بقاء وجلال ، وأرانى أميل الى أن التفضيل هنا مقصود به انتفاع الدنيا بالدين ، وهذا ما نرى السورة تعمل على غرسه فى النفوس ، وأن توازن لهم بين حياة فى ظل دين طبعت به الحياة ، وحياة أخرى قطعت ما بينها وبين الدين من وشائج واعتبار الحياة التى لم ترتبط بمنهج الدين مشتملة على خير انما هو بالنظر الى حال المخاطبين الذين يرون خيرهم فى استمرار أعمالهم دون قطع الصلاة لها ، فنبههم القرآن الى أن ما يظن انقطاعا عن العمل وتعويقا له هو مصدر مباركته بالتوجه الى الله تعالى الذى بيده الخير كله ، ومجىء كلمة « خير » منكرة يخلع عليها معنى العظمة والسعة فهو تنكير للتعظيم والتكثير معا وبعد الانتهاء من تلك الشعيرة التى جمعت بين العلم والعبادة ، والدربة على الاجتماع فى ظلال وحدة العقيدة والمنهج ، يخاطب القرآن اتباعه أن ينتشروا فى الأرض مبتغين من فضل الله ، ومع استشعارهم الدائم معيته ــ سبحانه لهم ــ فليكونوا له على ذكر ، وليكثروا من هذا الذكر « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

---

(١٣٦) ينظر روح المعانى ٢٨/٩١ .

يتأكد لنا ــ حين نتدبر هذه الآية ، وسابقتها ــ أن الاسلام دين الحياة، وأنه يسير بأتباعه فى خطين متوازيين : الدين والدنيا ، وأن ما يعمل ــ جاهدا ــ لتحقيقه هو : أن يقبلوا على الحياة بروح الدين ، وكأنما كان للنظم ــ فى سورة الجمعة ــ أثره فى هذا الجمع ، فقد نظم الدنيا بجوار الاخرة فأمر بالسعى الى ذكر الله ، ثم قفاه آمرا بالانتشار فى الأرض طلبا للرزق •

ومعنى « فاذا قضيت الصلاة » أديت وفرغ منها ، وكما استعملت اذا مع النداء استعملت أيضا مع انقضاء الصلاه ، و فى هذا الاستعمال لفتة للمسلمين أن يوجهوا اهتمامهم الى تحقيق معنى الصلاة باتقانها: خشوعا ومراعاة لشروطها وأركانها وفى التعبير بالقضاء بالنسبة للصلاة اشارة الى ما لها فى نفس المسلم من شعور بتبعته نحوها وما يهدأ له خاطر الا بالفراغ منها ، ويتوافق التعبير عن الأداء مع التعبير عن النداء حيث جاءت صيغة كل منهما مبنية للمجهول حيث لا غرض يتعلق بذكر الفاعل ، ويذكر لفظ الصلاة اسما ظاهرا ، وقد سبق ذكره من قبل ، ومقتضى ذلك التعبير عنه بضمير لكن يوضع الاسم الظاهر فى موضع الضمير ليتمكن معنى الصلاة فى النفوس • وكما أمرهم الله تعالى فاجتمعوا فانه ــ سبحانه ــ يأمرهم أن ينتشروا فى الأرض « فأنتشروا فى الأرض وابتغوا ن فضل الله » والأمر هنا فى « انتشروا وابتغوا » للاباحة (١٣٧) ، أما فى « انتشروا » فلما أن اباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة ، فاذا زال ذلك عادت الاباحة ، فيباح لهم

---

(١٣٧) دليل الاباحة فى الأمر هنا الاجماع (انظر : فتح البارى ٢/٤٢٧) •

ان ينتشروا فى الارض ويبتغوا من فضل الله ، وهو الرزق (١٣٨) واما « ابتغوا » فكونه بعد الامر بقوله تعالى « وذروا البيـــع » (١٣٩) ، والتعبير عن الخروج من المسجد ، واستئناف الاعمال بالانتشـــار فى الارض له دلالات كثيرة نذكر منها :

ما فيه من دلالة على اختلاف الاعمال وتنوعها ، لما للانتشار من تعدد فى الاتجاه كما ان فيه دلالة تطويع النفوس لمزاولة العمــل بعد اداء فريضة الجمعة ، حيث ان صيغته من صيغ المطاوعة ، مثلها فى ذلك قولك نشرته فانتشر ، وتهيئه فانتهى وفيه ايضا دلالة السيطرة على كل مكان النفع فى الارض لما فى الانتشار من معنى الاتساع والانبساط ، أى لتكن حركتكم فى الارض بحيث تغطى كل موطن منها يظن فيه النفع ولا تتركوا مكانا دون ان يكون لكم فيه وجود وهيمنة ، ولعل فى هــذا ما يحفز المسلمين الى استغلال كل وسائل العلم للانتفاع بما اودعــه الله تعالى فى الارض من خيرات سواء اكان ذلك فى قشرتها العلوية ، أم فى باطنها ، وفى التعبير بـــ «فى» ما يدل على معنى التمكن حال الانتشار، وهو معنى يوحى بقوة الحركة وشدة الارتباط بمكان العمــل ، وفيــه أيضا لفتة الى ما تختزنه الارض من ثروات ، وأن الذى يطلبها عليه أن يبحث فيها وينقب ، وقد أخبر القرآن الكريم بذلك « وجعل فيهـــا رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » (١٤٠) والذى يدفعنا الى أن نقف عند « فى » هكذا ما نعلمه من أن هذا الفعل من الممكن تعديته بعلى وذلك كالذى رأيناه فى قول الصنوبرى :

(١٣٨،١٣٩) انظر : التفسـير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ٩/ ٣٠ مجلد ١٥ .

(١٤٠) الآية : ١٠ من سورة فصلت .

وكأن محمر الشقيق اذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

فعدى الفعل بعلى فى قوله « نشرن على رماح » • واذن يكون ايثار القرمن الكريم للحرف « فى » له غايته وله دلالته •

وحين يكد المسلم فى عمله للحصول على رزقه يربطه الله تعالى به ، فيلفته الى أن هذا الرزق الذى حصله من عمله هو من فضله — تعالى عليه — وأن الأسباب التى باشرها يجب ألا تحجبه عن مسببها وهو الله ولذا فانه — سبحانه — يربط بين الطلب وبين فضله « وابتغوا من فضل الله » واستعمال كلمة « فضل » فى هذا الموضع يشع بمعنى الرزق ، فهى •• اذن — مجاز مرسل والعلاقة فيه السببية، اذ فضل الله تعالى هو أهم أسباب الرزق ، وتكون القيمة البلاغية فى هذا المجاز هى ألا يفتن الناس بجودهم ،وأن يقر ق أخلادهم أن كل ثمرات الجهد هى من فضل الله تعالى ، ويضعنا النظم المحكم أمام سعة فضله — سبحانه — وذلك بادخال «من» على «فضل» وابتغوا من فضل الله مع اضافة الفضل الى لفظ الجلالة ، وهى اضافة للتعظيم وللتشريف معا أما التعظيم فلما لهذا الفضل من مدى لا ينتهى ، وأما التشريف فلما يصحب تفضله تعالى من عدم المن بالعطية ، فهو فضل صفو ، خال مما يعكره وحين ينساح المسلم فالأرض يعمرها ، ويستخرج كنوزها وثرواتها ، فما يليق به أن يكون بمنأى عن المنعم المتفضل ، جدير به أن يوالى ذكر الله تعالى ، ولهذا يأتى الأمر الأخير فى هذه الآية بالذكر الكثير « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » • والذكر سواء أكان باللسان كما قال مقاتل ، أم بالطاعة كما قال ابن جبير ، أو كان فى جميع الحالات من قيام وقعود واضطجاع كما قال

مجاهد (٤١) ، فانه ليس ذلك الذى سبق فى قوله تعالى « فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » ان الذكر هنا ذكر آخر انه ذكر يجتمع مع الأعمال التى يشتغل بها المسلم طلبا للرزق كالتجارة والصناعة وغيرهما، كما جاء فى قوله تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٤٢) أما الذكر الذى سلف فقد بينا أن المراد به الخطبة ، أو الصلاة ، وبهذا يكون من جملة ما لا يجتمع من التجارة أصلا (٤٣) .

والذكر المراد هنا ، والذى يجتمع مع جملة الأعمال ، ما أراه الا العاصم الذى يقى صاحبه زيغ الشيطان ، واغراء الدنيا ، وبريق المال فاذا هو يعمل آمنا كل انحراف ، وفى الوقت نفسه يأمن المجتمع بذكره ذاك فاذا الفلاح نتيجة تغمر المجتمع كله ، هذا ما أقام المسلمون حياتهم على انتزاع انفسهم ساعات يخلون فيها الى الله ، مع الاهتمام بعد ذلك بالعمل ، واشاعة الخير فيه بالاكثار من ذكر الله تعالى .

ان القرآن الكريم حين رسم هذين الخطين المتوازين للسلوك وضعنا أمام صورة « التوازن الذى يتسم به المنهج الاسلامى، التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ، ونشاط وكسب ، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده الذكر ، وهى ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى ، وذكر الله لا بد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش الى عبادة ، ولكنه

---

(١٤١) أنظر ـ التفسير الكبير ز مفاتيح الغيب للرازى ص ٩ جـ ٣٠ مجلد ١٥ .

(١٤٢) الآية ٣٧ من سورة النور .

(١٤٣) أنظر : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ١٠/ ٣٠ ـ مجلد ١٥ .

ـــ مع هذا ـــ لا بد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض • كما توحى هاتان الآيتان » (١٤٤) •

وقد جاء التعبير عن هذا التوازن حافلا بوجوه المطابقة لمعنى التوازن حيث رأينا كلا من المعنيين ـــ معنى الذكر الخالص متمثلا فى السعى الى فريضة الجمعه ، ومعنى الأنتشار فى الارض بغية تحصيل أسباب المعاش ـــ افتتح بأداة الشرط اذا ، وجاء الشرط فى كل من المعنيين فعلا ماضيا مبنيا للمجهول وكان الجواب الشرط فى كل من المعنيين فعل أمر مقترنا بالفاء ، وحدا دن السعى فى الجمعة الى ذكر الله ، فانه فى تحصيل المعاش ابتغاء من فضل الله ، وفى التذييل أيضا روعى هذا التوازن حيث كان مع الأمر بأداء الجمعة « ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » ومع الأمر بتحصيل الرزق « واذكروا الله كثيرا لعلكم نفلحون » وسلفنا الصالح الذين أدركوا هذه القيم فى طبيعة الاسلام ، وفى بلاغة القرآن ارتقوا بسلوكهم الى هذا المستوى من التوازن فى يسر وسهولة وفى صورة من الجدية التى تأخذ القرآن منهجا تمتثله « عن عراك بن مالك أنه كان اذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك ، وأنت خير الرازقين » (١٤٥) •

انه الانتهاج المتوازن للمنهج المتوازن •

وبعد أن تصل بنا سورة الجمعة الى هذا المستوى من تجلية حقائق الاسلام التى تؤكد اجتماع العمل للدنيا والآخرة معا فى خطين متوازيين كل منهما موصول بذكر الله ، تطالعنا بصفحة من صفحات

---

(١٤٤) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٣٥٧٠ •
(١٤٥) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب جـ ٣٠ ص ٩ مجلد ١٥ •

الضعف النفسى ، الذى يطل بوجهه اذا وهت قوى الايمـــان ، فادا سوت المـال له على النفس سلطان يعلو على كل ســـــلطان ، واذا الانبهار ببريقه يطادر مشاعر السكينة والاستقرار :

« واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » •

ذكر فى سبب النزول فيما رواه البخارى عن معاوية بن عمرو عن معاوية بن عمرو عن زائدة كلاهما عن حصين عن سالم بن أبى الجعد عن جابر بن عبد الله قال : بينما نحن نصلى مع النبى ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ اذ أقبلت عير تحمل طعاما ، فالتفتوا اليهـا حتى ما بقى مع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الا اثنا عشر رجلا ، فنزلت هذه الآية « واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما » (١٤٦)•

وقال المفسرون أصاب أهل المدينة أصحاب الضرار جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خلف الكلبى فى تجارة من الشام، وضرب لها طبل يؤذن الناس بقدومه ورسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ يخطب يوم الجمعة فخرج اليه الناس فلم يبق فى المسجد الا اثنا عشر رجلا منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ والذى نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادى نارا » (١٤٧) •

ونظم الآية يشعر بتكرر هـــذا الحادث ، والروايات تؤكد ذلك

---

(١٤٦) فتح البارى ــ شرح صحيح البخارى لابن حجر ص ٤٢٢ جـ٢ •
(١٤٧) أسباب النزول للواحدى ص ٣٢٠ •

أيضا « عن قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات فى مقدم عير » (١٤٨) على أن ذلك الذى وقع من دحية كان قبل أن يسلم • قال ذلك مقاتل(١٤٩) •

والآية الكريمة ــ اذن ــ تصور واقعا ، وتخبر عن سلوك غيه بقايا من جواذب الجاهلية ، ويجىء التعبير متناسقا مع ما فى الواقعة من معان ، فالتجارة تأكد لهم وصولها مما قوى فى نفوسهم دافع الخروج اليها ، وجاءت « اذا » دلالة على هذا المعنى ، وقد كانوا اذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فكانت التجارة التى خرجوا اليها مصحوبة بما يعلم بوصولها ، وينبىء بقدومها •

والرؤية هنا ليست لنفس التجارة ولا للهو لأن كلا منهما ليس مما يرى أصلا فكيف يصح « رأوا تجارة أو لهوا » ؟ نقول : ليس المراد الا ما يقرب منه اللهو والتجارة ، ومثله « حتى يسمع كلام الله » اذ الكلام غير مسموع ، بل المسموع صوت يدل عليه » (١٥٠) •

ولما كانت الرؤية قد وقع فى محيطها كل من اللهو ومن التجارة روعى ذلك فى عود الضمير موحدا اليهما نظرا لأنهما شىء واحد من حيث الرؤية وهذا ما عبر عنه الزجاج حين قال : « أعيد الضمير الى المعنى ، أى انفضوا الى الرؤية ليروا ما سمعوا » • (١٥١)

وقيل أيضا فى افراد الضمير بينما ذكر قبله شيئان : « وتقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها ، أو لهوا انفضوا اليه فحذف أحدهما

---

(١٤٨) تفسير الكشاف ص١٠٦ ج ٤ • وذكرها أيضا الرازى فى تفسيره ص ١١ ج ٣٠ •

(١٤٩) أنظر : التفسير الكبير للرازى ص ١٠ ج ٣٠ •

(١٥٠) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ١١ ج ٣٠ مجلد ١٥

(١٥١) فتح البارى ٢/٤٢٤ •

لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءة من قرأ « انفضوا اليه » وقراءة من قرأ «لهوا أو تجارة انفضوا اليها»)(١٥٢) • وقرىء «اليهما» (١٥٣)

وقد كان هذا الانفضاض حال الخطبة بدليل « وتركوك قائمـا » اذ « الخطبة تكون عن قيام » (١٥٤) •

على أن هذا الحادث الذى تكرر لا يقدح فى مكانة الصحابة وربما بدأ أن الموقف هنا يعارض ما وصف به الصـــفوة من المؤمنين بأنهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (١٥٥) • لكن ما يبدو من تعارض لا وجود له ، ذلك أن الانفضـاض الذى وقـع من بعض الصحابة « لم يكن تقدم لهم نهى عنه ، فلما نزلت آية الجمعة (١٥٦) وفهموا منها ذلك اجتنبوه فوصـــفوا ــ بعـــد ذلك ــ بما فى آية النـــور » (١٥٧) •

فهو ــ اذن ــ موقف لم يكن قد سبق بيان حكمه ، فلما وقـــع عالجه القرآن على طريقته،فحث على تلبية أمر الله تعالى ، لافتا الأنظار الى عظم ما عند الله تعالى من مكافأة على الطاعة وثواب عليها ، مـع مجاراته لهم فى زعمهم أن التجارة واللهو لذة ومتعـة حيث وازن بين ما وقع منهم وما هو عند الله تعالى من ثواب فقال « قل ما عنـد الله خير من اللهو ومن التجارة » وقد ذكر المفسرون (١٥٨) أن المراد بمـا

---

(١٥٢) تفسير الكشاف ٤/١٠٧ •
(١٥٣) تفسير الكشاف ٤/١٠٧ •
(١٥٤) فتح البارى ٢/٤٢٥ •
(١٥٥) الآية ٣٧ من سورة النور •
(١٥٦) هى قوله تعالى « اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ••• الآية » •
(١٥٧) فتح البارى ٢/٤٢٥ •
(١٥٨) انظر : تفسـير الجلالين وحاشـية الصاوى عليه ٤/٢٠٧ •

عند الله هو الثواب ، وفى تقديرى أن هذا الثواب الذى هو جـــزاء الطاعة والامتثال لا يقتصر أمره على الآخرة ، بل هو يكون أيضـا فى الدنيا وذلك بأن يبارك الله تعالى ثمرة الكد والاشتغال بتحصيل الرزق بعد الفراغ من أداء فريضة الجمعة • وخير ــ على هذا ــ اســـم تفصيل على بابه ، باعتبار أن فى اللهو والتجارة لذة دنيوية •

وذكر المقابل لما كانوا عليه وبيان عظم الجـزاء عـلى التعلق به حفز للهمم أن تسارع الى ايثار ثواب الله على كل ما يشـــغل عنه ، والتعبير القرآنى ــ على هذا النحو الذى جاء عليه ــ يشعر بالرقة فى التوجيه ، ويوحى أيضا بعدم نقدم النهى عن أن ينفضوا حال الخطبة، فهو سلوك من جواذب الجاهلية ، ولا يلبث أن يختفى تماما بعـد نزول القرآن الكريم بشأنه •

وتختم السورة بما يغرس فى النفوس المؤمنة الثقة فى الله تعـالى « والله خير الرازقين » وهو مناسب للتجارة التى مر ذكرها ، لا للهـو •• بل هو مناسب للمجموع ، لمـا أن اللهو الذى مر ذكره كالتبـــع للتجارة لمـا أنهم أظهروا ذلك فرحا بوجود التجارة (١٥٩) كمـا أن هذا الختام يناسب موضوع السورة ، ويناسب فاتحتها ، ويلتئم أشد الالتئام مع ما قبله ، ذلك أن موضوع السورة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ هو تحميل ــ هذه الأمة أمانة الدعوة الاسلامية بتطبيقها سلوكا وانتهاجا ثم دعوة سائر الناس اليها ، ولا شك أن ذلك كله أمر يشغل ــ بعض الوقت عن تحصيل الرزق، وربما تعرض صاحبه لشدائد ومحن يخيل للمرء فى ظلها أنه قد حيل بينه وبين نصيبه من الدنيا ، فنبه الحق تبـــارك وتعالى الى أن الاشتغال بأمر الدعوة عمل يكافىء عليه من هو خـير

---

(١٥٩) التفسير الكبير ص ١٠ جـ ٣٠ مجلد ١٥ •

الرازقين الذى يتسع عطاؤه ويمتد ويدوم ولا يملك أحد بعده أن يمنع شيئا مما أراد هو ايصاله الى عبده ٠

أما مناسبة تلك الخاتمة لفاتحة السورة فان البدء والختام ليتناجيان بمعنى واحد ونغمة واحدة أيضا ، اذ البدء تنزيه له تعالى يصدر من مخلوقاته فى الكونين : العلوى والسفلى وثناء عليه سبحانه بأنه الملك القدوس العزيز الحكيم ، ثم يجىء وصفه سبحانه بأنه خير الرازقين تحقيقا لانفراده سبحانه بهذه الصفات ، فان شأن من اختص بأنه الملك على سبيل الحقيقة ، وبأنه المبارك ، والعزيز الذى لا يغالب، والحكيم الذى يضع الشىء ــ عن علم ــ فى موضعه ، شأن من اختص بكل هذه الصفات أن يكون عطاؤه خير العطايا لأنه هو الرازق على سبيل الحقيقة ، وفى عطائه الطهر لعدم المن ، مع السعة والدوام ويتلاءم هذا الختام مع معنى الآية الكريمة التى جاء هو ختاما لها اذ هو : تعقيب للجملة السابقة بما يشتمل على معناها ، وفيه معنى الاستقلال ، فهو تذييل خرج مخرج المثل (١٦٠) ٠

« واسم التفضيل هنا «خير» على بابه ، فالرازقون متعددون ، ولكن على سبيل المجاز ، والا فالرازق حقيقة هو الله » (١٦١) ٠

ولما كان كل عطاء يقاس بقدرة صاحبه وماله من امكانات فان عطاء الله سبحانه لا يصل اليه عطاء ، ولهذا قال الجبائى دل قوله تعالى « وهو خير الرازقين » (١٦٢) ٠ على أن أحدا من العباد لا يقدر

---

(١٦٠) انظر : المطول لسعد الدين التفتازانى ص ٢٩٤ ٠
(١٦١) حاشية الصاوى على الجلالين ص ٢٠٧ جـ ٤ ٠
(١٦٢) هذا بعض الآية ٧٢ من سورة المؤمنون ٠

على مثل نعمه ورزقه ، ولا يساويه فى الافضال على عباده ، ودل أيضا على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضا ، ولولا ذلك لما جاز أن يقول « وهو خير الرازقين » (١٦٣) ٠

واذا كنت سورة الجمعة قد جمعت الدين والدنيا ، فانها أيضا نظمت السعى الى كل منهما فى سلك واحد ينتهى الى الله تعالى ، وينبغى — اذن — أن يكون هو سبحانه غاية المسلم وهو يسعى الى تحصيل رزقه ، وكسب معاشه ، اذ هو غاية الغايات ٠ وكأنه سبحانه — حين يختم سورة الجمعة بقوله : « والله خير الرازقين » يقول : « فاليه سبحانه اسعوا ومنه — عز وجل — اطلبوا الرزق » (١٦٤) ٠

ويقتضينا — حق القرآن الكريم علينا — أن تمتد معانيه متجاوزة حدود المادة الى آفاق معنوية فلا تقف بالرزق عند حدوده الظاهرة ، ذلك أن الرزق رزقان :

رزق ظاهر فهى الأقوات والأطعمه ، وذلك للظواهر وهى الأبدان ورزق باطن وهى المعارف والمكاشفات ، وذلك للقلوب والأسرار ٠ وهذا أشرف الرزقين فان ثمرته حياة الأبد ، وثمرة الرزق الظاهرة قوة الجسد الى مدة قريبة الأمد ، والله تعالى هو المتولى لخلق الرزقين ، والمتفضل بالايصال الى كل من الفريقين (١٦٥) ٠

---

(١٦٣) التفسير الكبير للرازى ص ١١٣ ج ٢٣ مجلد ١٢ وكلام الجبائى فى الآية ٧٢ من سورة المؤمنون ٠

(١٦٤) روح المعانى للألوسى ص ٩٤ ج ٢٨ ٠

(١٦٥) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى للامام الغزالى ص ٧٩ ٠

ونظم السورة الكريمة وغايتها يشدان وجدان المسلم الى أن رزق الباطن هو المعنى بقوله تعالى : « ما عند الله خير من اللهو من التجارة » « اذ هو الثمرة لطاعة التي انصرفوا عنها بينما رزق الظاهر يحظى به الكافر كما يحظى به المؤمن ، ومن ثم يكون التفضيل فى قوله تعالى « والله خير الرازقين » من حيث انه ــ سبحانه ــ يرزق من المعارف والأسرار ما يعجز عنه سواه • ويكون السعي اليه ولزوم بابه مصدر المدد بهذه القوى والأسرار الخفية التي تنمحي أمامها كل رغبة فى عرض من أعراض الدنيا » •

وبهذا يتأكد دور الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الدائم فى تزكية أمته حين تخلص من العبودية للدنيا ، وتتجرد للدعوة : تطبيقا لها ، ثم ابلاغا لها الى الناس جميعا ، متحملة كل ما تلقاه ، فان شعار الدعاة الذى قرره القرآن فى سورة الجمعة « قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » •

ولعلنا ــ بعد هذا كله ــ نكون قد وعينا اطراد النظم القرانى وتماسك المعانى فيه ، حتى ليأخذ بعضها بحجز بعض ، وكيف جمعت سورة الجمعة آخر هذه الآمة بأولها فى التلقى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتعلم على يديه ، وكيف وضعت أمام أعيننا صفات اليهود مجتمعة ، من تكذيب لكتبهم السماوية ــ على الرغم من معاناتهم فى حفظها ودرسها ، ومن حبهم الشديد للحياة ، مع دعواهم أنهم أحباء الله وامتدادا لهذا الحب الشديد للحياة فانهم يجبنون من الموت ويفرون منه وما هذا الفرار بدافع عنهم ملاقاته لهم •

وتخاطب السورة المؤمنين أن يجتمعوا للعبادة كل أسبوع فى يوم الجمعة حين ينادى للصلاة فيحققوا لأنفسهم خير ذلك اليوم الذى ضل عنه اليهود والنصارى •

وتتجلى روعة النظم فى الدعوة الى التوازن بالانتشار فى الأرض ـ والابتغاء من فضله ـ سبحانه ـ اذا قضيت الصلاة ، مع الاكثار من ذكره تعالى وتنتهى السورة على النحو الذى رأينا ـ من التعرض لبعض صور الضعف النفسى أمام مغريات الحياة ، مما من شأنه صرف النفس عن الطاعة ، لكنها ترسم طريق العلاج ، انه التعلق بالله والطموح الى ما عنده « قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » وصلى الله تعالى ـ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •